ممرات الرعب

رواية من الخيال العلمي

ممرات الرعب

رواية من الخيال العلمي

د. طالب عمران

اسم الكتاب: **ممرات الرعب.**

اسم المؤلف: **د. طالب عمران.**

الترقيم الدولي: **ISBN**: 978- 9933- 567- 16 - 3

الناشـــر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**

سنة الطباعة: **2017.**



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

00963115637060 :

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

الفصل الأوّل

على أبواب العبور الصعب

(1)

كان الوضع معقّداً وهو يلحظ دقة التفتيش بين الناس الذين يعبرون البوابة ومعاملة الحراس على الحاجز الرئيسي لهؤلاء الداخلين.. ثم تدقيقهم في الصور وبطاقات الدخول، وكثرتهم على محطات العبور الرئيسية قبل الحاجز وبعده..

صف طويل من الناس لا يدري أين ينتهي، وجد نفسه فيه يتقدم ببطء شديد للعبور إلى البلاد الحرة التي يعيش فيها الناس حياة مرفهة كلها متعة ومال وانفتاح هائل دون مضايقة من أحد..

همس له الرجل إلى جانبه:

– دار رأسي من حرارة الشمس، لو علمت أنني سأقف كل هذا الوقت لارتديت قبعة تقي رأسي هذه الحرارة الكبيرة ونحن في منتصف النهار..

– وماذا نفعل يا أخ؟ يبدو الوضع معقداً، والذين يرفضون دخولهم أكثر من الداخلين.. انظر إلى وجوه الناس الذين رُفضوا، تبدو مثقلة بالحزن..

– سأسأل أحدهم عن سبب رفضه..

– قد تغضب بذلك الحراس..

– مازلنا بعيدين عن الحراس، لن ينتبهوا لي.. هيه.. يا آنسة، قفي من فضلك، لماذا رفضوك؟

أخذت تبكي:

– بسبب الصورة.. قالوا أنها قديمة وبالأبيض والأسود، وحين عرضوني للتصوير على ذلك الجهاز بنصف ثيابي، قالوا لي: هناك شيء في داخلك يمنعنا من إدخالك، عودي إلى بلدك، لقد رفضنا دخولك ..

– الأنذال، من أجل صورة عتيقة؟ وما هو الشيء الذي بداخلك ومنعهم من إدخالك؟

– لا أدري.. كنت أفكر بمغزى هذه الجملة التي قالوها.. ولم أصل إلى تفسير لها..

– ما رأيك يا أستاذ بما قالته الفتاة؟

– لا أدري.. ربما اكتشفوا فيها مرضاً ما..

– معقول.. وإن بدا الأمر غامضاً.. ثم لو كانت مريضة، لم

يرفضوها لهذا السبب بكل وضوح وصراحة؟

كانت تقف حائرة متردّدة وهي تبكي بصمت:

– وماذا أفعل الآن؟ تركت كل شيء لأخوتي، وبعت كل ما أملك، وقد لا أجد من يستقبلني..

قال لها مشفقاً:

– اهدئي أرجوك، ربما عثرنا على حل..

– كيف؟ هل سأعود لأطرق الباب على أخوتي متوسلة أن يستقبلوني من جديد؟

– كان يجب أن تحفظي خط الرجعة، وأن لا توزعي كل شيء تملكينه هكذا.. لكنك قلت إنك بعت كل ما تملكين، يعني لديك المال، وبالمال يمكنك الحياة من جديد..

– حتى المال وزعته أو وزعت القسم الأكبر منه على أخوتي، لا أملك سوى القليل، وهو لا يكفيني لأبدأ من جديد..

سألها: – دمغوا يدك بالرفض، أقصد ختموا على ذراعك بختمهم الذي رفض دخولك؟

قالت متردّدة: – لا.. لا أعتقد..

- إذن يمكنك المحاولة من جديد.. الختم يعني المنع النهائي والأبدي..

- معقول!؟ يعني هل أستطيع الوقوف في الصف من جديد؟

- ربما ليس سريعاً..

سأله الرجل الواقف بعده في الصفّ:

- وما أدراهم أنها كانت في بوابة الدخول؟

أجابه شارداً: - ربما صورة الهوية أو جواز السفر، وربما البصمة الجينية.

- معك حق ..

ثمّ التفت نحو الصبيّة: - ومن أين تمّ رفضك؟ أنت لم تعبري المعابر جميعها..

- هناك أكثر من عشرة معابر، أعادوني من المعبر الثاني.. أي قبل الحاجز بثلاثة معابر.. لأن مابعد الحاجز خمسة معابر أيضاً..

- لا بأس.. أنت متزوجة؟

- أنا المأساة بعينها يا أستاذ، كل هموم العالم تجمعت في

هذا الجسد النحيل الذي تراه أمامك.. بالطبع خضت تجربة زواج وحشي مرعب..

- وحالياً أنت غير متزوجة؟

- نعم.. أنا أرملة حالياً، لا تحدق بي مستغرباً.. رغم سني الصغير كوني في الخامسة والعشرين من عمري فأنا أرملة.. قلت لك كل هموم العالم في هذا الجسد الذي يكاد يتهالك..

فكّر، ((مسكينة تبدو منهارة.)).

عاد الرجل المجاور له يعلّق متأفّفاً: - لا نتقدم إلا بصعوبة.. يبدو أنهم أكثروا من التعقيدات من جديد..

- وما الذي جعلنا نرضى بهذا الإذلال؟ أليست الرغبة بالهروب من واقعنا الصعب؟

- اصبري يا آنسة، قد نستطيع التغلب على المشكلة معاً..

- ماذا تقصد؟ هل سأجرب المعابر من جديد؟

- قفي إلى جانبي، سنحاول أن نجعلك تجربين من جديد..

- كيف؟

- سأقول لهم إنك زوجتي..

– ماذا؟ زوجتك! ولكن.. هل تعتقد أن هذه الحيلة ستمر عليهم؟

– أعتقد أن وجودك معي سيربكهم..

– وكيف سنقنعهم؟

– سنظهر لهم أننا متعلقين ببعضنا ونتبادل القبل.. تعالي قفي في الصف مكاني.. أعطني جواز سفرك، لدي صديق هنا، سيفبرك زواجنا على جوازي وجوازك..

– أدهشتَني بعرضك، تبدو شاباً طيباً.. سأقف في الصف.. خذ جواز سفري..

– دقائق وأعود.. ولكن يجب أولاً أن أصورك بجهازي النقال.. هه.. لن أتأخر..

اختفى الشاب.. سألها الرجل الذي يليه في الصفّ:

– ذهب ولن يعود؟

– دقائق ويعود، أنا أقف مكانه ألديك مانع؟

– لا دخل لي.. هه.. مازلنا نتقدم ببطء شديد.. يا إلهي.. الشمس تكاد تذيبني..

(2)

شـردت الفتـاة قلـيلاً مسـتغربة عـرض ذلـك الشـاب ممشـوق القامـة، جميل الوجـه، الـذي يحمـل سـمات الطيبـة والوداعـة.. خلال دقائق أصبحت زوجة له، على الأقل علـى هذه المعابر فقط..

قد تنجح خطته، وتضيّع الحراس بصفتها الجديدة كزوجة لهذا الشاب الذي لا تعرف اسمه ولا يعرف اسمها..

صحت من شرودها على يد تربت على كتفها، التفتت لتجده يبتسم:

– لم أتأخر كثيراً يا سلاف..

– هه.. وعرفت اسمي بالطبع؟

– اسـمي هاشـم، تـمّ الأمـر والحمـد لله.. أنـت زوجتـي الآن.. هه.. على الجواز طبعاً..

قلّبت صفحات الجواز: – كيف ركبت صورتينا معاً؟

– الحاسوب يفبرك أي شـيء.. اسمعي.. اربطـي شـعرك مـن الخلف لنغير المنظر قليلاً ..

شعرت بدفء حديثه معها، فاطمأنت، يبدو شاباً طيباً.. بدأا يتهامسان من جديد..

– ما قصتك يا هاشم؟ لماذا أنت مهاجر؟

– كما تهاجرين أنت.. من صعوبة الحياة هنا.. حدثيني عن نفسك، ماذا حدث لك؟

– قصتي طويلة يا هاشم، وإن شاء القدر أن نجتمع معاً في حال نجحنا بالعبور سأحكي لك قصتي المؤسية ..

انبعثت أصوات ضجة وصخب.. كان حراس المعابر الأولى قد أبعدوا مجموعة من الناس بعد التدقيق الأول في هوياتهم..

تنهّد بارتياح: – بدأنا نتقدم..

– وأنت لك قصة بالتأكيد.. تبدو وسيماً فتياً، من غير المعقول أن تهاجر للمغامرة والبحث عن الرزق..

– فعلاً هناك قصة.. وقصة ربما تبدو غير مألوفة، ولكنها حدثت لي ودفعتني للرحيل..

– غير مألوفة؟

– هكذا أراها.. على كلّ حال سأحكيها لك.. ماتت أمي بعد

عام من ولادتي، وأشرفت عليّ أختي الكبيرة حيث كنّا أربعة؛ ثلاث أخوات، وأنا الأخ الوحيد الأصغر.. كان والدي قاسياً كثير الطلبات خاصة بعد أن طُرد من عمله.. واضطرت أمي للاستدانة من أخوتها لمساعدته..

* * *

– يا أبا هاشم أرجوك يكفي، حاول أن تدبر عملاً، بتُّ أخجل من أخوتي..

– لماذا الخجل؟ أخوتك أثرياء، وأنا بحاجة للمال لأصرفه عليك وعلى بناتك.. ما العيب في ذلك؟

– أشعر أنني عالة عليهم..

– عالة!؟ ما يصرفونه عليك هو جزء من حصتك من الإرث..

– تعلم حقيقة أن هذا الكلام غير صحيح، حصتي من الإرث هو هذا البيت الذي نسكنه والمال الذي صرفناه وكان يمكن ادخاره.. ليس لي في ذمة أخوتي أي شيء ..

– وما أدراك أنهم لم يسرقوا شيئاً من إرثك.. لماذا تصدقينهم؟

- لأنهم صادقون، لم يكذب أحد منهم عليّ أبداً..

- هه.. أغلقت الأبواب كلها.. أنا متأكد أنهم سرقوك..

- لا داعي لهذا الكلام.. أخوتي شرفاء ولا يكذبون..

- إذن أنا الكاذب يا ابنة الـ......

انهال عليها ضرباً.. هرعت أختي الكبرى ملهوفة نحوهما:

- لماذا ضربتها؟ ماذا فعلت لك؟ ألا تعلم أنها حامل؟ حرام عليك.

- اخرسي أنت وإلا كسرت رأسك..

كانت أمّي تتأوه محاولة التماسك وهو مازال يضربها:

- أنا بخير يا هيفاء.. يا ابنتي..

- حرام عليك.. تفش خلقك بها لأنك عاطل عن العمل، ما ذنبها؟ لولا أخوالي لمتنا من الجوع..

هرع نحو أختي، وانهال عليها بالضرب أيضاً:

- أيتها الحمقاء.. سأريك..

- ابتعد عنها، يكفي.. يكفي ..

كانت هيفاء تبكي وتصرخ فيه بغضب:

- اضربني، اضربني، ليس لديك حسّ بنا ولا بمشاعرنا.. نحن مجرد أثاث في البيت، هكذا تعاملنا..

- هيفاء.. لا تتكلمي مع والدك بهذه الطريقة.. لا.. لا.. يا ابنتي..

خرج حانقاً وهو يردّد: - بيت مجانين..

صفق الباب وراءه.. ضمّت هيفاء أمّي إليها وهي ملهوفة:

- أنت بخير يا أمي؟

- الحمد لله.. فقط أشعر ببعض المغص..

- أنت في شهرك السابع، لم يحن الأوان بعد..

- ساعديني لأتمدّد على السرير، سأكون بخير..

- لابد وأنه ضربك على بطنك..

- لا.. لم يضربني على بطني، وإنما دفعني بقسوة، ربما آذتني السقطة..

- آه يا أمي.. والدي أصبح شديد القسوة علينا..

- بسبب جلوسه المتواصل في البيت أو في المقهى، هو لا يبحث عن عمل، يكاد الملل يقتله.. قال له خالك (برهان)

تعال واعمل عندي في الشركة ولكنه رفض، قال إنه ينتظر وظيفة كبيرة..

– ولماذا طرد من عمله؟ سألتك هذا السؤال مئة مرة ولم تجيبي..

– ليس من عادتي أن أتكلم في هذا الموضوع..

– ولماذا يا أماه؟ أنا كبيرة الآن، ويجب أن أعرف..

– رفاق السوء هم سبب الخراب الذي أصابه.. كان يخرج معهم، ويصرف المال ويتأخر في السهر، ويتأخر عن عمله بالتالي، حتى أنذره مديره أكثر من مرة، ولكنه لم يبال، اعتقد أن كل هذه التهديدات بفصله غير جدية.. حتى عثر عليه المدير نائماً في مكتبه ورائحة الخمر تفوح منه، فطرده.. ورغم كل الوساطات لم يعيدوه إلى عمله.. وقد اكتشفوا أنه زوّر فواتير، واختلس بها بعض المال من صندوق الشركة..

– يا إلهي.. وهل تخلّى عنه رفاق السوء؟

– مع الأسف، لا يزال مديناً للقسم الأكبر منهم.. وقد طالبوه بالديون كثيراً، حتى أجبرني أن أطلب من أخوالك مبالغ من

المال كل فترة، فوفى ببعض هذه المبالغ جزءاً من ديونه وتصرف بالباقي كعادته..

– وهذا سبب التعتير الذي نعانيه في البيت، أعانك الله يا أمي..

– اسمعي يا ابنتي، لم يكن والدك سيئاً، كان عندما تزوجته شاباً طموحاً، وكنا سعيدين بعد مجيئك ومجيء أختك (زهرة).. وكنت حاملاً بأختك (منى) حين مرضت أمه وكان وحيدها بين عدة إناث، وكان متعلقاً بها كثيراً، وقد بذل جهده وماله من أجل مساعدتها في الشفاء من المرض الخبيث الذي أصابها، ولكنها ماتت.. رحمها الله.. فأصبح في أسوأ حال..

– وبدأت مشاكله، يخرج من البيت ولا يعود إلا متأخراً، كأنه كان يحاول نسيان فقدانه لجدتي؟

– نعم يا ابنتي.. وأصبح رجلاً آخر..

(3)

أكمل هاشم قصته وسلاف منتبهة له دون أن يشعرا أنهما يقتربان من بوابة العبور الأولى..

– وماذا حدث بعد ذلك يا هاشم؟

– باختصار، ولدتني أمي بعد أسبوعين من ذلك الحادث، وفرح أبي كثيراً فقد جاءه الولد أخيراً.. وحاول أن يتخلى عن عناده ويعمل مع خالي برهان.. ولكن (حليمة رجعت لعادتها القديمة) فما إن أصبح يملك المال، حتى عاد إلى رفقة السوء.. وهدد أمي إن اشتكت منه لأخوالي فسيقلب حياتها.. وهذه ليست شيمة من شيمها، فهي تتحمل منه كل شيء، ولم تبح لأحد بسر عذاباتها معه ..

صرخ أحد الحرّاس:

– هيا، تقدم أنت..

همس هاشم: – يبدو أننا وصلنا..

قال للحارس:

– لست وحيداً يا سيدي، معي زوجتي..

- هيا مررا أيديكما أمام الجهاز..

همست: - أنا خائفة..

- لا داعي للخوف، إن شاء الله ننجح في العبور..

قال حارس آخر يجلس خلف الجهاز: - أنت هاشم الناصر؟ هـه.. العمـر (33) عامـاً، زمـرة الـدم (A) إيجـابي، رمـز الحمض النووي (اثنـان علـى ثلاثـة RB).. آه.. أنت نجحت في عبور البوابة الأولى..

ثمّ همس له:

- هنـاك توصـية مـن خالـك إلـى وزارة خارجيتنـا لتسـهيل عبورك.. خالك رجل مقتدر؟

- نعم يا سيدي.. هذه زوجتي شيلا..

- قفـي هنـا أنـت.. جـوازك مشـترك مـع السـيد هاشـم، أنـت زوجتـه.. شيلا نعيم، مواليدك، آه.. عمرك (25) عاماً، زمرة الدم (O) إيجابي، رمز الحمض النووي (ثلاثة على ستينRB 15 - 15)، هـه.. مواصـفاتك تطـابق امـرأة اسـمها سـلاف نعيم.. رفضها المعبر الثاني..

قال هاشم بسرعة:

– هي أختها التوءم يا سيدي..

– لا بأس.. ستعبرين إلى المعبر الثاني مع زوجك..

– شكراً لك يا سيدي..

* * *

قال هاشم بصوت شبه مكتوم:

– غيرت كثيراً من المعلومات عنك كي أضللهم، حاولي أن لا تجيبي على أسئلتهم، أنا أتولى الإجابة..

وصلا المعبر الثاني، كانت هناك كثرة من الأجهزة، وكثرة من الموظفين..

– هيا تقدما.. زوج وزوجة؟

– نعم يا سيدتي..

– اقتربي أنت أولاً، تمددي هنا.. ولا تنبسي بحرف..

قالت بخوف: – حاضر يا سيدتي..

– كأنني رأيتك من قبل.. أمتأكدة أنك لم تحاولي العبور من قبل؟

- لا يا سيدتي، هذه أول مرة مع زوجي..

أزّ الجهاز أزيزاً متواصلاً.. قالت المرأة:

- هه.. هناك شيء في داخلك غير طبيعي.. سأكشف عن هذا الشيء..

سأل هاشم بقلق:

- كتلة في داخلها أم أن شيئاً آخر هناك؟

نهرته المرأة:

- لا تتكلم معي الآن، اتركني أقوم بعملي.. عد إلى مكانك ولا تغضبني..

- آسف.. سأعود..

- فعلاً، هناك شيء غير عادي في داخلك.. لم أفهمه، حتى الحاسوب لا يستطيع معرفته.. هه.. سأتصل (بجون)..

ضغطت عدّة أزرار أمامها:

- آلو جون..

- ماذا يا سارة؟

- هناك شيء غير مفهوم في داخل امرأة فتية هنا، حتى

الحاسوب لم يستطع كشفه، ماذا أفعل؟ هل أعيدها؟ أم ماذا؟

- هل هي وحيدة؟

- لا.. زوجها معها..

- إذن انتظري حتى تختبري زوجها فإن كان طبيعياً، اتركيها تعبر معه إلى المعبر الآخر..

همهمت: - معك حق..

ثمّ خاطبت هاشم:

- تقدم، هات بطاقة الاستمارة الخاصة بك، أنت زوجها؟ هه.. لابأس.. تقدم وادخل في فوهة الجهاز..

- حسناً.. أنا جاهز..

اجتمع لفيف من موظّفي المعبر الثاني حوله.. بدوا راضين عن النتيجة، ثمّ همست المرأة وهي تهزّ رأسها: - كل شيء على مايرام.

همست في أذنه:

- هناك وصية خاصة بك من الخارجية.. تفضل يمكنك العبور معها إلى المعبر الثالث..

(4)

– ما دمنا عبرنا معاً، أعتقد أننا سننجح في العبور إلى الجانب الآخر..

– كيف أرسلك الله إلي لتعيد لي أملي بالحياة؟

كان الطريق أمامهما سهلاً وهما يقتربان من المعبر الثالث:

– لا يبدو أيّ من الحراس هناك.. إنه معبر الكتروني سأدخل أنا أولاً.. وأنت بعدي..

قالت: – لا.. سأدخل أنا قبلك، قد يرفضني الجهاز إن كنت بعدك وقد لا أراك بعدها..

– لا تقلقي، إن رفض الجهاز أحداً منا، فسنعود معاً ولن ندخل إلى هذه البلاد.. لنعتبر أنفسنا زوجاً وزوجة بالفعل..

– اتفقنا..

دخل هاشم إلى البوابة الالكترونية، فتح الباب وسارت به أرضيتها حتى توقفت أمام جهاز، فرأى عدسات تحيط به من كل جانب ووجد صوره موزعة على أجهزة تلفزيونية عديدة..

رأى هيكله العظمي وأحشاءه، ورأى عينيه وأذنيه ودماغه،

كانت الأجهزة تشرّحه.. ثم طلب منه صوت أن يجلس..

– اجلس خلف الحاسوب، واكتب الأجوبة عن أسئلته..

– نعم.. نعم..

– كن دقيقاً حذراً في الإجابة..

وبعد لحظات، أنهى الأسئلة التي سأله إياها الحاسوب بأجوبة اعتقدها مناسبة، كانت أسئلة شاملة لمفاصل كثيرة في حياته..

سمع صوتاً يطلب منه الوقوف والتقدم:

– يمكنك العبور الآن إن كنت وحيداً، وإن كان لديك مرافق فاجلس في المقعد القريب، وانتظر عبور من يرافقك..

كان قلبه يأكله القلق على سلاف، أمعقول أن تفشل في الإجابة عن الأسئلة أو أن لا تقبلها أجهزة التصوير؟

ورأى الأضواء تبرق وتلمع في الغرفة المجاورة، ثم فتح الباب أخيراً وعبرت سلاف في اتجاه الحاسوب لتجيب على أسئلته..

وللحظات قليلة، سمع الصوت الذي أتاه رخيماً مفرحاً:

– يمكنكما العبور إلى المعبر الرابع..

وفـي المعبـر الرابـع لـم يكـن هنـاك حـراس أيضـاً، دخـلا معـاً، وتوزعت الأجهزة حولهما، كانت أجهزة لقياس الضغط وتحليل الـدم والجينـات الوراثيـة، ودراسـة أعضـاء البدن عدا الـدماغ.. سمعا صوتاً من داخل الأجهزة:

- عليكمـا تجربـة هذه الأجهزة جميعـاً مـن رقـم (1) حتـى رقـم (6).

قال لها : - هيا نتناوب على الجهاز رقم (1).. هه..

- يبدو جهازاً صعباً، الكرسي المرتبط به يدور بسرعة كبيرة..

- ربما لمعرفة قدرتنا على التحمل، هه.. سأبدأ به..

مـا إن جلـس عليـه وثبّـت نفسـه بـه حتّـى دار دورانـاً سـريعاً، واختفى عن عيني سلاف:

كانت تدعو في داخلها: - يا ربّ ساعدنا لنعبر هذه الأجهزة بسلام..

توقف الجهاز عن الدوران.. ونزل منه هاشم الذي كان دائخاً قليلاً ولكنّه كان يبتسم في وجهها:

- أنت بخير يا هاشم؟

- نعـم.. لا تقلقـي.. أنـت لا تشـتكين مـن شـيء.. يمكنـك الصمود ببساطة..

- طيب.. سأبدأ.. بسم الله..

- كوني قوية يا سلاف ولا تخافي..

دار الجهاز من جديد دوراناً سريعاً.. كان هاشم يفكّر:

((نحـن نمـر بمراحـل غريبـة علـى هـذه المعـابر.. مـا الـذي يريـدون معرفتـه عنّـا؟ كـأنهم يدرسـون أجسـادنا بكـل تفصـيل ودقة.. لماذا؟)).

توقـف الجهـاز عـن الـدوران، ورأى هاشـم سـلافاً وهـي زائغـة النظرات:

- آه.. أشعر بدوار..

- لا تقلقي، سيتوقف هذا الشعور سريعاً..

سـمعا صـوتاً آخـر يهـدر فـي المكـان: - هيـا إلـى الجهـاز الثاني.. إنه أمامكما..

قال لها هامساً: - سأبدأ أنا يا سلاف. لا يبدو دواراً كالأول. كـان جهـازاً غريبـاً.. فمـا إن جلـس هاشـم علـى كرسـيه حتّـى

تحرّكت أجزاء منه لتطبق عليه من جميع الجهات.. وشعر أنّ الأشعة تنفذ إلى جميع أجهزة جسمه.. كأنّه جهاز للتصوير ثلاثي الأبعاد..

كانت الأشعة تنفذ إلى كل الطبقات.. ((أنا الآن كتلة آدمية تدرسها الأجهزة المعقدة، وتنفذ إلى خلاياها بمختلف الوظائف.)).

كانت سلاف تشعر بقلق كبير: ((لماذا لم يكتشفوا الشيء الغريب الذي بداخلي والذي منعوني من الدخول بسببه؟)).

توقّف الأزيز في الجهاز، وانفتحت أقسامه ليخرج هاشم وهو يبتسم في وجهها:

- دورك يا عزيزتي..

هتفت متضرّعة: - يارب ساعدني..

ولكنّها خرجت بعض لحظات دون أن تشعر بأثر للأشعّة.. وهذا ما أراحها نفسيّاً.. وقد رأت هاشم يبتسم في وجهها بكلّ ثقة..

* * *

واستمرت الأجهزة المتتالية حتى وصلا إلى الجهاز الأخير وكان يختص بالدماغ.. وحين شعر هاشم بذلك همس لسلاف..

– أريحي تفكيرك، ولا تفكري بأي شيء له علاقة بالماضي أو الحاضر.. أنا خائف أن يلتقطوا ما تفكرين فيه.. كوني حذرة أرجوك.. إنّه الجهاز الأخير..

– طيّب.. سأحاول تنفيذ ذلك..

– يبدو جهازاً ضخماً عليه صور للدماغ.. سأبدأ أنا ثم تأتين بعدي، انتبهي لما يحصل.. إنه جهاز ربما كان شديد الأهمية فقد يقرؤون فيه أفكارنا..

– حسناً..

كانت هناك أصوات موسيقيّة خاصة.. ووصله صوت داخلي:

– استرخ تماماً، واشرد بأفكارك كأنك تستعد للنوم..

راقبت سلاف ما يحدث، ثمّ رأت صوراً متتابعة يبثها الجهاز إلى شاشة عرض.. كانت صوراً لطفل يحبو ثم ينمو ويكبر،

رأته كأنه يمر بمراحل حياته بسرعة كبيرة..

شعرت أن هذا الشاب قريب منها لدرجة تفوق الوصف، فدمعت عيناها، ودعت في سرها أن يوفقهما الله بالعبور..

لحظت سلاف صورة امرأة تتردد بين الصور كثيراً.. وكأنما سمعتها تهمس:

– انتبه لنفسك يا بني.. ستكون في أمان إن شاء الله..

– أنا خائف يا أماه..

– كن قوياً، ولا تخش شيئاً..

لاحظت سلاف ما يحدث، وشعرت بالشفقة وهي ترى بشكل سريع صور معاناة هاشم..

وازداد الوضع تعقيداً عند المعبر الخامس الذي وصلا إليه..

الفصل الثاني

العبور الصعب

(1)

ها أنت يا هاشم تدخل في دائرة مغامرة شديدة الصعوبة، لم تتوقع أن تحفل بتلك المفاجآت التي داهمتك وأنت في مركز هذه الدائرة..

بالصدفة تعرفت على سلاف، الصبية التائهة المعذبة، والتي أدخلتها في محاولة العبور من جديد، ولكن كزوجة لك، على الورق فقط، وقد أشفقت عليها وهي تبكي بكاءً مرّاً بعد أن رفضوها على المعبر الثاني..

ثم تنجحان في الوصول معاً من جديد إلى المعبر الخامس، بعدما رأى كل منكما الآخر في محطات حياته المتتابعة عبر جهاز قراءة الذاكرة..

كانت سلاف تراقب ما يجري في الأجهزة التي تقرأ دماغ هاشم..

((يبدو أن هاشماً عانى كثيراً في حياته.. كأنني أراه وهو يعاني في بداية فتوته، ووالده عاد إلى رفاق السوء، يشرب الخمر بشكل مكثف ويلعب القمار، حتى طرده (برهان) من

عمله بعدما اكتشف أنه يختلس المال ويزور الشيكات.)).

* * *

كانت أمّ هاشم تحاول أن تقنع أخاها بتشغيل زوجها من جديد، ولكنّه كان رافضاً:

– أرجوك يا أختاه، لا تغضبي مني، سأدفع له راتبه، ولكن لا أريده في شركتي أبداً..

– وماذا أفعل يا برهان، عاد إلى رفقة السوء وبقوة هذه المرة، لم أستطع أن أؤثر عليه ليعود إلى طبيعته..

قال هاشم:

– إنه يضرب أمي يا خالي، ظهرها يؤلمها من الضربات القاسية التي تلقتها..

– مازال يضربك يا أختاه؟ معقول!؟

– بالصدفة، عندما تضيق به الأحوال..

– اسمعي يا أختاه، سأسلمك راتبه الشهري، ولكن بشرط أن تمنعيه عنه، اصرفيه على أولادك فهم بحاجة للمال، وأنا جاهز لمساعدتك دائماً يا أختاه.

ولكن ما شهدته سلاف بعد ذلك كان قاسياً، فلقد حاول الأب أن يأخذ مالاً بالقوة من أم هاشم، التي استماتت في منعه.. فأطاح بها بضربة كانت قاتلة، ولم يشفق على حالتها وهو متعتع من السكر، فأفرغ صندوقها الصغير من المال وخرج من البيت..

كانت صدمة قاسية على هيفاء الأخت الكبرى وعلى الصبي هاشم..

كان برهان مصعوقاً من الحادثة التي أودت بحياة أخته:

– هذا الوغد، أمعقول أن تصل به القسوة إلى حد القتل؟

ظهرت هيفاء في صور الجهاز وكأنّها تبكي بحرقة أمام خالها:

– ماتت أمي يا خالي، أمي الطاهرة الحنونة التي دافعت عنا وعن قوتِنا لآخر لحظة من حياتها..

– اهدئي يا هيفاء أرجوك، لن أترك هذا الوغد دون عقاب..

ورأت سلاف الطفل هاشماً يبكي أمّه: – ذهبت أمي يا خالي ولن تعود..

- إنه القدر يا بنيّ ماذا نستطيع أن نفعل؟

ورأت سلاف كيف قبضت الشرطة على الأب، وأودعته في السجن وقد صحا لنفسه ورأى الجريمة التي ارتكبها وهو فاقد الوعي من السكر.. انهار صحياً وبدأت عذاباته..

((أمعقول!؟ أنا قتلتك يا أم هاشم البريئة المكافحة؟ كم أنا شديد القسوة والوحشية، يا إلهي، أنا الشرّ بعينه .)).

- يجب أن تذرف دموع الندم. أنت قاتل ومتوحش..

- أريد أن أرى أولادي.. أرجوك أيها الشرطي أخبر رئيسك..

- وهل تعتقد أنهم يريدون رؤيتك؟

- أريد أن أسترحمهم، أستسمح منهم ما فعلت، ويلي كيف أقدمت على ارتكاب هذه الجريمة الفظيعة؟

- أنت مدمن على الكثير من الممنوعات، مدمن على الخمر وعلى المخدرات، قمنا بفحص دمك، أنت غير طاهر..

- ولن أعود لذلك أبداً..

- حتى لو قتلت نفسك لن نسمح لك بتناول أيّ من هذه الممنوعات..

- آه.. دعني أتعذب .. ليت العذاب يقتلني بسبب إدماني، لن أتناول شيئاً.. يجب أن أعاقب نفسي أنا إنسان متوحش، وشديد القسوة أيضاً..

وتدفقت الصور، فرأت سلاف كيف ضغطت البنات على أخوالهن، لإخراج والدهن من السجن وقد شعرن بندمه الشديد..

وخرج إنساناً آخر، إنساناً معذباً، هدّه الإدمان، وهدّه الحزن على ما فعله بزوجته البريئة..

- إنه لا يفارق قبر أمي يا خالي..

- يجب أن يطهّر نفسه، ما فعله كان جريمة يندى لها الجبين..

- أصبح نحيلاً، وديعاً، ساهم النظرات، إنه في وضع صعب..

- حاولت أن أقنعه بالعودة إلى الحياة ولكنه صرخ في وجهي..

((لن تحلو الحياة بدون أم هاشم، وبما أنني ارتكبت جريمة

قتلها، فيجب أن أعاقب بالموت.. يجب أن أتعذب وأقسو على نفسي حتى أموت.)).

- إنه لا يأكل ولا يشرب إلا في أوقات متباعدة كأنه يرغب بقتل نفسه فعلاً..

ورأت سلاف وكأن بعض رفاق السوء زاروه وهو قرب القبر ضعيفاً واهناً، فحملوه إلى بيت أحدهم، وبدؤوا يحاولون إعادته إلى ما كان عليه..

وازداد الوضع تعقيداً، حين بدأ يصحو من ندمه، ويعود إلى طبيعته ورفاق السوء يساعدونه بكل ما يستطيعونه، حتى دخل يوماً إلى أولاده..

- أريد مالاً يا هيفاء..

- أبي؟ معقول!؟ تريد مالاً مني!؟ لماذا؟ لتشتري المخدرات وتمارس الإدمان على الخمر.. معقول يا أبي؟

- أعطني بعض ما تملكين.. أعرف أن أخوالك يمدونك بالمال، وأنت الكبيرة التي تتولين أمور البيت.. هيا يا هيفاء، لا تغضبيني منك..

- يا إلهي، وإن لم تحصل مني على مال؟ ماذا ستفعل؟

- سآخذه بالقوة..

قال له هاشم الصغير: - وإن قاومتك ستقتلها كما قتلت أمي؟

- اسكت يا ولد..

- لن أسكت، ولن أدعك تقتل أختي وترتكب جريمة أخرى.. حرام عليك، لماذا عدت إلى رفاق السوء؟ اعتقدنا أنك عدت إلى طبيعتك، أعادك قتل أمي إلى وعيك..

- سأقتلك أنت وأقتل أختك وأقتل كل من في البيت ..

- تفضل، أنا فتاة ضعيفة، وأنت أب قوي قاس متوحش.. كما قتلت أمي قد تنجح في قتلي، هيا..

- أعطني المال قلت لك..

- أنت شيطان.. شيطان.. لا يمكن أن تكون أباً من جديد.. أنسيت كيف قتلت أمّي؟ أنسيت لجوءك إلى قبرها ووعدك لها بالتوبة؟

حاول التقدّم إليها، فصرخ به هاشم:

- لا تلمسها، لن أسمح لك.. ابتعد عنها..

- هاشم، ابتعد، بسرعة.. تعلم أنني لا أستطيع أن أؤذيك.. أنا أحبك..

- لن أسمح لك بضرب هيفاء.. ابتعد عنها يا أبي ابتعد.. هيفاء ابنتك، هي أختي التي أحبها..

ورأت سلاف كيف ضرب الأب هاشماً وأظهر قسوة شديدة وهو يحاول أن ينتزع المال من هيفاء.. وهو يضربها ويرفسها وهي تنوح وتبكي.. حتى قام هاشم بدفعه بقسوة عنها فسقط على الأرض وارتطم رأسه بها فانفجر الدم منه..

رأت سلاف كيف أخذوه إلى المستشفى.. وكيف عاد الندم يعتصره من جديد.. كان هاشم يبكي وهو خائف عليه:

- لا تندم يا هاشم، كنت تدافع عن أختك..

- ولكني قد أتسبب في موته، حالته خطرة ..

وأتى الطبيب إلى هاشم:

- أنت ابنه؟ هو يريدك الآن..

قال خاله:

- ادخل إليه، ولا تخف، هو في حالة حرجة..

ووقف هاشم أمامه.. أشفق عليه.. كان في وضع صعب:

- آه يا بني.. سأموت، أنا لا أستحق أن أحيا أبداً، كنت نموذجاً للشر، وعسى أن يغفر لي ربي ما ارتكبته من جرائم بحقكم.. لا أطلب منكم سوى السماح.. أرجوكم سامحوني.. اطلب لي السماح من أخواتك، من هيفاء ونهى وزهرة..

- لا بأس عليك.. اهدأ أرجوك، قد تزيد حالتك سوءاً بهذا البكاء.. أرجوك يا أبي..

- لا.. لن أستطيع الهدوء.. أنا أموت، ويجب أن تسامحوني..

- نحن نسامحك يا أبي.. نسامحك..

- رغم أنّني لا أستحق ذلك، ولكن يجب أن أطلب هذا السماح عسى أن يكفّر عني ربي سيئاتي الكبيرة ..

ومات الأب، وشعر هاشم بالأسى، وحين أنهى دراسته الجامعية، شعر أن عليه أن يهاجر من مدينة تذكره بالحزن والذكريات المؤسية..

(2)

كانت الأجهزة تسجّل كلّ شيء في دماغ هاشم.. وقد علّق مسؤول المعبر على ما شاهده متحدّثاً إلى رجل بعيد في مكان آخر:

- ما رأيك يا سيّدي؟

- ليعبر ومن معه إلى المعبر التالي.. مهما كانت نتيجة الأجهزة.. مثل هؤلاء قد نستفيد من تمرّدهم ومن معاناتهم وإحساسهم بالظلم.. وذلك في مراحل لاحقة عند تجاربنا على الخليّة والهندسة الوراثيّة، ستكون مثل هذه النماذج مهمّة في مخابرنا..

أشار الرجل إلى سلاف:

- هيا.. تقدمي أنت.. انتهى فحص زوجك..

حدّثت نفسها: ((إنه جهاز عجيب، عرض الذاكرة على استعراض تفاصيل الحياة)).

همست لهاشم وقد رأته ينهض وهو يبتسم لها:

- يمكنك متابعتي ومعرفة قصتي.. رأيت تفاصيل حياتك..

عرضها الجهاز بالتفصيل..

عاد الرجل يلحّ عليها: – هيا يا سيّدة، بسرعة..

– حسناً.. همست وهي تتمدّد أمام الجهاز: ((أرجو أن تتابعني يا هاشم)).

– سأتابعك يا حبيبتي، لا تقلقي ..

– تمدّدي واسترخي.. شرود ما قبل النوم..

– حسناً..

بدأت الصور تتدافع.. ورأى هاشم سلاف الوحيدة بين عدة شبان، هي الناجحة المتفوقة وهم غير المبالين بمتابعة الدراسة، وقد بدأ الفشل يقتنصهم واحداً واحداً..

كانت تتعرض لمضايقات بسبب غيرتهم من حب والدهم لها وهي الابنة الأثيرة لديه..

حتى أمها كانت تغار من حب والدها لها، وكانت مع أبنائها الصبيان في كل ما يفعلونه، وتقسو أحياناً على سلاف..

– لم أر ابنة متعلقة بوالدها مثلك يا سلاف، لماذا؟ أنت تفسدين علاقة والدك بنا أنا وأخوتك..

- ولماذا يا أمي؟ معقول!؟

- نعم.. أنت فتاة أنانية لا تفكرين سوى بنفسك..

- بدلاً من أن تشجعيني للتفوق، وتدفعي بأخوتي للدراسة.. أنت تعكسين الموضوع وتغيرين اتجاهه ..

- تنتقدينني؟ أنت؟ على كل حال، والدك هو السبب، إنه رجل غير عادل بين أبنائه، ولا يعرف كيف يتعامل معي ومعهم..

ولوقوف الأم مع أولادها ضد الأب، وصل الشجار بينهم حداً جعل الأب يصاب باحتشاء قلبي أودى بحياته..

بَكتهُ سلاف كثيراً، واعتقدت أن وفاته أعاد لأمها التوازن من جديد ولكن الأم:

- أمعقول؟ في وصية والدك إجحاف كبير..

- إجحاف كبير؟ بماذا؟

- لك النصف ولنا جميعاً النصف الباقي، يجب أن تتنازلي عن بعض حصتك لهم.. وإلا رفعنا دعوى ضدك وضد والدك الذي جار على أولاده..

– لا داعي لذلك يا أمي سأعطيكم ما تشاؤون..

– سنذهب غداً إلى الشهر العقاري، ثم إلى المصرف لتقدمي لنا بعض مالك..

– كما تشاؤون يا أمي..

ولكن ما فعلته سلاف لم يكن كافياً، فلقد دفعتها أمها وأخوتها إلى الزواج من ثري، اكتشفت فيما بعد أنه يعشق أمها وهي تعشقه.. فانهارت محبطة يائسة..

وفي أحد الأيام سمعت صوت ارتطام جسم بالأرض ورأت زوجها الثري المسن، ممدداً على الأرض وفوق رأسه بعض الأولاد مع الزوجة التي بدت مذهولة..

– ماذا فعلتم؟

– لم نفعل شيئاً، أنت من قتله، وسنشهد جميعاً بذلك..

– ماذا؟

– إما أن تقبلي بذلك وإما أن تتنازلي عن كل ما يملك زوجك لنا، أنا وأخوتك..

– ما هذا يا إلهي، معقول؟ لستم بشراً..

- اخرسي..

انهالت عليها بالضرب:

- سأكومك فوقه..

انفجرت تبكي متألّمة:

- هذا أفضل لي من أن أحتمل العار الذي أشعر به الآن منكم..

- أيتها البلهاء الوضيعة، أنت سبب الخراب كله..

- ماذا فعلت لكم؟ ماذا؟

- ما فعلته كان كبيراً أيتها الحمقاء..

رأى هاشم كيف حوصرت الأرملة الصغيرة، وكيف تعرضت لحملات التعذيب، حتى نصحتها صديقتها بالهجرة..

- يجب أن تتخلصي من هذا الجو المسموم يا سلاف..

- بأن أهاجر؟

- نعم.. قد تبدئين حياة جديدة في تلك البلاد..

- وكيف لي أن أعبر معابر الحدود العشرة؟ يقولون أنها شديدة التعقيد وشبه مستحيلة..

– هو خيار صعب، لكن لا مفر من الهرب من هذه الأجواء المقيتة..

– معك حق.

شعر هاشم بالأسى وهو يتابع ما يجري، وقرّب ذلك سلاف من قلبه، فشعر أن عاطفة بدأت تنسج قلبه مع قلبها..

خرجت من الكابينة الصغيرة، وسمعا الصوت المألوف:

– يمكنكما التقدم، نجحتما في اختبارات العبور..

– كاد قلبي يتقطع عليك، مررت بتجربة رهيبة..

– تابعتها؟

– نعم.. وشعرت بأن عاطفة قوية بدأت تنمو بيننا..

– شفقة؟

– لا.. ربما إعجاب، بل الحب..

(3)

شدها نحوه يحتضنها وهما يتجهان نحو المعبر الخامس..

كانت أجهزته تختبر قوة التحمل والصبر..

وربما لم يستغرقا سوى دقائق وعبرا، فهو وهي كانا قادرين بقوة كافية على الصبر، وعلى التحمل.. اقتربت منهما امرأة بدينة، كانت تبتسم:

- سنفتح لكما الحاجز لتمرا، أنتما تقتربان من العبور الشرعي إلى بلادنا الحرة..

- والمعابر الجديدة، ألن يوقفونا هناك؟

- بالطبع، هي معابر.. ولها خصوصيتها، ولكنها أقل زمناً من المعابر التي سمح لكم بالعبور منها قبل الحاجز الكهربائي..

- متى ستفتحون الحاجز الكهربائي؟

- حالاً ..

صرخت البدينة: - افتحوا الحاجز أيها الحراس..

- سنفعل حالاً يا سيدتي.

هدر الباب وهو ينفتح وصوت الحرّاس يلعلع:

- يمكنكما المرور الآن مهما حدث لكما في المعابر الأخرى فلن تعودا من جديد.. عبور هذا الحاجز يعني أنكما أصبحتما في بلادنا.. والمعابر الجديدة هي التي ستفرزكما إلى الأمكنة التي قد تعيشان فيها..

همست سعيدة: - أسمعت قد ننجح فعلاً بالعبور؟

- هيا يا عزيزتي يجب أن نتابع طريقنا..

همس أحد الحرّاس:

- الحاجز الكهربائي له توابع.. انتبها لهذه التوابع..

- ماذا تقصد؟ أية توابع؟

- هناك ممر خاص بين الأعشاب، وهو مرصوف بالحجارة، يجب أن لا تخرجا أقدامكما منه.. الأعشاب تخفي ألغاماً خاصة بالأفراد.. هيا تابعا تقدمكما..

(4)

كان المعبر السادس يتضمن المرور أمام عدسات تصوير خاصة.. واستغرق مرورهما خمس دقائق.. وفي نهايته شعرت سلاف بألم في بطنها..

- هاشم.. أشعر أنني أعاني من مغص شديد في بطني..

- تشددي حتى نخرج من المعبر.. لا تظهري أي ألم..

- سأحاول، تعال ساعدني.. هه.. الألم يزداد يا هاشم..

- أرجوك حتى نخرج من المعبر.. سنرتاح قليلاً في المعبر القادم، ربما قدموا لنا شراباً ساخناً..

- نعم.. أشعر بالعطش فعلاً..

- سنطلب منهم الإذن بالراحة..

كان هناك تجمّع لبعض الحراس..

همس: - ما زلت تتألمين؟

- نعم.. لا أكاد أقوى على الوقوف، أنا أبذل جهدي..

- هه.. أنا أرى امرأة تجلس خلف مكتب هناك.. سأذهب إليها..

- لا تتركني أرجوك..

- استندي علي سنذهب سوية..

أوصلها بهدوء صوب المرأة التي تولّت فحصها:

- هه.. أنت تشعرين بمغص في بطنك جهة اليمين؟

- نعم.. نعم..

قال هاشم:

- ربما كانت تشعر بالعطش والجوع.. أنفقنا ساعات طوال حتى نصل إلى هنا..

- لا بأس.. خذي، اشربي هذا الدواء.. سيريحك.. إنه أشبه بالعصير..

شربت منه بانزعاج: - شكراً لك.. طعمه شديد المرارة..

- تشعرين بالتعب؟ لا بأس يمكنك الجلوس قليلاً..

سألها ملهوفاً: - هل سنقضي وقتاً طويلاً في المعبر؟

- خذ اشرب هذا أيضاً..

- لست أشتكي من تعب.. أنا بخير..

- إنه جزء من الاختبار تفضل..

شرب: – طعمه لذيذ أشبه بخليط من عصير الفواكه..

– هيا، تقدما.. أمامكما جهازان أشبه بصندوقين ستتمدّدان داخلهما..

نظرت نحو هاشم مرعوبة:

– أشبه بتابوتين متطاولين..

– لا بأس يا عزيزتي، هو اختبار أيضاً..

تمدّدا داخل الصندوقين.. وقد شدّ هاشم يدها مشجّعاً..

قالت المرأة: – أغلق الصندوقين بإحكام يا بيتر..

– نعم.. نعم يا نانسي..

أغلق بيتر الصندوقين بضغط أزرار كهربائيّة ملوّنة:

– الآن أصبحا تحت تصرفك، حين يستيقظا لن يذكرا شيئاً..

– سأدفع بالصندوقين إلى النفق الكهربائي وأتابعهما عبر الكاميرات الخاصة..

– أعتقد أنهما سيكونان مفيدين كثيراً للمركز..

– عينات حية؟

– نعم.. وهي عينات استثنائية..

– هه.. حسناً يا نانسي، أراك فيما بعد..

* * *

استيقظ هاشم وآثار الخدر عليه.. كان ممدداً على سرير أبيض مزدوج وقربه سلاف ممددة كأنها تنام بعمق..

مضت لحظات قبل أن يستوعب الأمر.. كان أشبه بمخبول لا يدري شيئاً ممّا حدث له..

وفي الغرفة المجاورة كانت تجري أشياء غريبة..

الفصل الثالث

عينات من فئران المخابر

(1)

((مـاذا حـدث؟ يبـدو أننـي نمـت نومـاً عميقـاً كأنمـا تناولـت مخدراً.. سلاف ممددة إلى جانبي، أشعر بأن شيئاً حدث لنا.. كأن هذا السرير في مستشفى ميداني..)).

سمع أصواتا متداخلة.. أنصت إليها باهتمام.. كانت تتحدّث عنه:

- يبدو كأنه فتح عينيه..

- سيظل مخبولاً لعدة دقائق قبل أن يعود إليه وعيه..

- لماذا يتحدثون بهذه اللهجة؟ ما الذي فعلوه بنا؟

- لا تهتمي يا دكتورة.. الوضع جيد بشكل عام..

- بـالعكس أنـا مهتمـة بتجربتـي، وأرجو أن تنجح، إنـها عمليـة زرع نادرة..

- سيظلان تحت مراقبتنا بعد أن ننهي مرورهما علـى المعابر بطريقة فجائية ليبدو العمل كأنـه فـي مصلحتهما.. وأننا فتحنا لهما أبواب بلدنا بطريقة ترحيب ودودة..

- أعلم ذلك.. وأنا شديدة اللهفة لمتابعة التجربة ونتائجها..

قـال لنفسـه: ((سـأظلّ متظـاهراً بالغيـاب عـن الـوعي حتـى أعرف نوع هذه التجربة التي تتحدث عنها المرأة.)).

- أرني بالأشعة وضع العينة المزروعة..

- حسناً انظري..

لم يستطع هاشم منع نفسه من الالتفات إلى الجهاز الضخم وهو يتظاهر بالبلاهة وكأنما يفتح عينيه بصعوبة..

- هـه.. تبـدو الخليـة وكأنّهـا بـدأت تنمـو وتتكـاثر.. الوضـع ممتاز..

- ربما لحظ شيئاً، كأنما يحرك رأسه..

- لابـأس.. فلنطفـئ جهـاز التصـوير البـانورامي ولنتـابع استيقاظه.. المرأة التي إلى جانبه مازالت هامدة..

- هل أسلط الجهاز عليها قبل أن أوقف تشغيله..

- لابأس ولكن بسرعة..

أزّ صوت الجهاز: - الخلية الملقّحة تبدو في الرحم بوضع ممتاز.. لا بأس يمكنك إيقاف تشغيل الجهاز..

((ماذا يحدث؟ أية تجارب زرع يجرونها علينا، يبدو أن الأيام

القادمة شديدة السواد، يا إلهي..)).

توقّفت الأصوات وخرج من كان في الغرفة.. وتحركت سلاف إلى جانبه وهي تتألم.. ثم فتحت عينيها:

– آه.. أشعر بدوار في رأسي.. آه.. أين أنا؟

– يبدو أننا سقطنا فاقدي الوعي من التعب، فوضعونا في هذه الغرفة المريحة.

– آه.. أشعر بوجع أسفل بطني..

– إن شاء الله خير.. لا تقلقي..

فتح الباب من جديد.. كانت هناك مجموعة من أفراد طاقم طبّي يرتدون لباس العمليات:

– هه.. استيقظتما؟ تبدوان متعبين..

– نعم.. أنا متعبة..

– يبدو أن توصية خاصة بكما قد جاءتنا الآن..

– بنا؟ خير؟

– تفتح لكما بلدنا ذراعيها، وقد قرر المشرفون على المعابر أن تعبرا إلى بلادنا مباشرة، بدون المعابر المتبقية..

قال متصنّعاً الابتهاج:

- خبر عظيم.. أسمعت يا سلاف؟

- أعتقد أنني بحاجة لطبيب، أشعر بوجع في أسفل بطني..

- حالاً ستحضر الطبيبة..

تكلّمت بالميكروفون:

- آلو.. من فضلك يا دكتورة، نحن نحتاجك..

أتاها صوت عبر الجهاز:

- أنا قادمة حالاً..

وخلال لحظات فتح الباب ودخلت طبيبة عجوز.. داعبت وجه سلاف بلطف:

- هه.. خير يا سيدتي؟

- أشعر بوجع هنا..

- لا بأس.. هه.. ربما تعرضت لبعض البرد، هه.. سأحقنك بإبرة مسكن فعالة.. أنت بخير، لا تقلقي..

قالت رئيسة الطاقم الطبّي:

- قرر المشرفون أن يجعلوهما يعبران بدون المرور على

المعابر الأخيرة..

– كأنني سمعت مثل هذا الخبر، كانوا يتحدثون عن زوج وزوجة مدهشين نجحا بتفوق في الاختبارات السبعة للمرور بكل المعابر الصعبة وبامتياز.. آه.. فرصة طيبة، أنتما إذن الزوج والزوجة؟

فكّر قلقاً: ((الحمد لله الذي جعلني أستيقظ مبكراً لأسمع همساتهم المرعبة حولنا..)).

* * *

(2)

دخلت مجموعة من الجنود يتقدّمهم ضابط كبير الرتبة.. وعلى الأكتاف شارات حرس المعابر.. تبسّم الضابط لهما:

– آه.. جئت بنفسي لأهنئكما.. قررت دولتنا العظمى أن تفتح لكما ذراعيها، وتقدم لكما منزلاً أنيقاً، بكامل أثاثه، وعملاً لكل منكما في مركز البحوث في مدينة هادئة جميلة..

شهقت سلاف بفرح: – ماذا!؟ الحمد لله..

– وسنقدم لكل منكما سلفة، راتب سنة، حتى تقوما بما ترغبان به من شراء ألبسة وأدوات تحتاجانها، ثم بالتجوال على مطاعم المدينة وأماكن راحة سكانها، كأنكما عاشقين يهيم كل منكما بالآخر..

– أسمعت يا هاشم؟ كأنما تحققت أحلامنا دفعة واحدة..

سأله هاشم: – عفواً يا سيدي، قلت أننا سنعمل في مركز البحوث..

– نعم.. ستكونان قريبين من بعضكما، وستعرفان نوع عمل كل منكما حالما تصلان إلى هناك..

بـدأت الاسـتعدادات لخروجهمـا مـن ذلـك المعبـر.. وكـان الضابط يشرف بنفسه وجنوده على تسهيل مهمّة إدخالهما إلى البلاد التي تمثّل حلماً بالنسبة للكثير من الشبّان الباحثين عن الحياة الآمنـة والمستقبل الموعود.. اقتربت من المدخل سيارّة فارهة:

– ستوصلكما هذه السيارة إلى منزلكما الجديد في تلك المدينـة الهادئـة.. هيـا يـا جـورج، رافقهمـا إلـى هنـاك، همـا الآن تحـت رعاية السلطات العليا..

– حاضر يا سيدي..

فتح جـورج لهمـا أبـواب السـيارة.. وصـافحهما الضـابط وهـو يبتسم:

– مع السلامة.. أتمنى لكما حياة جديدة سعيدة..

ومـا إن تحرّكت السيارة مبتعدة حتّـى هزّ الضـابط رأسـه وهو يقول:

– سيكونان شديدي الفائدة لأبحاثنا الجديدة قبل موتهما..

* * *

كانت سلاف سعيدة وهي تشد أصابع هاشم والسيارة تقطع بهما الطريق العريض بسرعة كبيرة، بينما كان هاشم يكاد يأكل قلبه القلق.. ولم يبادلهما جورج الحديث فقد كان صامتاً يجلس في المقعد الأمامي قرب السائق ووجهه صوب الطريق..

أسندت رأسها إلى كتفه وعادت إلى النوم من جديد..

- أشعر بخدر لذيذ، سأغفو لبضع دقائق..

- قضينا وقتاً متعباً، لابأس بالراحة الآن..

لفّ ذراعه حولها بحنان وهو يفكّر بقلق:

((مسكينة، تعيش أحلامها الوردية الآن، لا تعرف ما يخبئه القدر لنا..)).

تثاءب: ((أشعر أنني سأغرق في النوم أيضاً.. آه..)).

وبين النوم واليقظة.. رأى نفسه في مخابر مليئة بالأجهزة الغريبة، والإبر والمشارط تدخل جسده وهو شبه مخدّر، والوجوه تبتسم من حوله ابتسامات باهتة تخفي وراءها ألغازاً..

أيقظه جورج: - هه.. يا سيدي.. وصلنا.. يبدو أنكما كنتما

تناما بعمق..

– لا بأس.. هل سننزل هنا؟

– نعم.. سأعرفكما بمنزلكما.. ثم أمرّ عليكما بعد ظهر الغد لتزورا مركز البحوث هنا..

لم تكن سلاف قد استيقظت بعد.. هزّها بحنان:

– لا بأس.. سلاف.. استيقظي يا حبيبتي، وصلنا..

دمدمت ناعسة:

– آه.. نعم.. كنت في حلم لذيذ أطوف البلاد معك.. مناطق جميلة في الجبل والسهل، وبين أشجار الغابات.. وقرب الينابيع والشلالات..

– هه.. نحن أمام بيتنا الآن..

قال جورج:

– هذا هو المفتاح، تفضلا سأعود إليكما مساء لأرى ما تحتاجانه..

كانت شقة جميلة وواسعة ومفروشة بأثاث جديد.. تنهدّت:

– كم كنت قلقة خائفة.. الحمد لله كل شيء بخير الآن..

- ألا تتألمين؟ تشعرين بالتحسن؟

- أشعر بثقل في أسفل بطني.. هه.. نحن متزوجان الآن؟

- نعم.. وأحلّك الآن من هذا الزواج إن رغبت..

قالت بارتباك:

- ماذا تقصد؟

- تزوجنا بشكل سريع على المعابر، وجدتك شبه منهارة، خطرت على بالي فكرة الزواج، فسجّلتك على جواز سفري ونجحنا في العبور..

- ولكننا متزوجان أمامهم؟

- نعم سنظل هكذا، على الأقل أمامهم، إلا إذا رغبت بأن تجعلي هذا الزواج فعلياً؟

- أنت أشعرتني أنني زوجتك فعلاً، كنت حنوناً مهتماً بي و..

قال مقاطعاً:

- وما زلت حنوناً مهتماً بك.. وسأظل.. ولكن الذي قصدته أنك يمكنك اعتباري زوجاً بالاسم فقط.. لا أريد أن تتعرّضي لضغط..

همهمت بحزن: – أهي رغبتك أن تبقى زوجاً بالاسم فقط؟

قال بارتباك:

– لا.. ليست رغبتي، أنا أشعر أنك قريبة مني وقد جعلتني تلك المعابر أشعر أنك قريبة إلى قلبي بشكل يفوق التصور..

– متأكد أنك لن تندم؟

– أبداً.. ما رأيك؟

عاد الارتباك يسيطر عليها:

– حسناً.. وكيف سنحول زواجنا إلى حقيقة؟

– اتركي الأمر لي..

(3)

رغم كل ما كان يشعر به هاشم من حب لهذه المخلوقة الوديعة، فإن القلق كان يرعبه، يعلم الله ماذا فعلوا له ولها؟ وما التجارب التي أجروها عليهما؟

خلال ساعات كان زواجه منها شرعياً، وعاشا بعد ذلك سعادة لبعض الوقت قبل أن يطرق جورج عليهما الباب..

– جئت لأرى إن كنتما تحتاجان شيئاً؟

– أشعر بآلام في بطني أريد أن أرى الطبيب.

– لا بأس.. تفضلي..

قال هاشم: – سأرافقها، لأنني أشعر ببعض الألم في بطني أيضاً..

– لا بأس، تفضّل..

همست: – أخشى أن أكون مريضة فعلاً يا هاشم..

– لا تقلقي يا حبيبتي، إن شاء الله ستكون الأمور بخير..

قال جورج كأنّه يطمئنهما: – المركز الطبي قريب، وستكشف عليكما لجنة طبية متخصصة، لا أعتقد أنكما

تعانيان من مرض عضال، قدمتما من خلال المعابر يعني أن ظروفكما الصحية ممتازة..

– ولكن لماذا هذه الآلام؟

– ربما كان شيئاً عارضاً، لا خطر منه..

– إن شاء الله..

وصلوا إلى المركز الطبي، وأدخلهما جورج إلى قاعة مليئة بالأجهزة..

كانت هناك طبيبة بانتظارهما..

– أهلاً بك يا سلاف.. قيل لي أنك تشتكين من آلام في أسفل البطن.. اجلسي خلف هذا الجهاز.. وأنت يا هاشم سيقوم زميلي بفحصك.. يمكنك اصطحابه يا جون..

– نعم يا دكتورة.. تفضل أستاذ هاشم..

فكّرَ ((يريدون إبعادي عنها، حتى لا أعرف حقيقة ما يحدث لها..)).

– ما بك؟

– أريد أن أطمئن على زوجتي..

– ستطمئن عليها، ولكن يجب أن نطمئن عليك..

رأى هاشم وهو يبتعد حقنة كبيرة تزرع في وريد سلاف.. فشعر بالقلق الشديد.. وكانت هناك حقنة بانتظاره وهو يجلس خلف جهاز مشابه.. رغب في مقاومتها..

– كل هذه الحقنة؟

– لا تقلق، لن تشعر بأي ألم..

((حقنة مخدّر، سيكون جسدي مفتوحاً لعبثهم، كما هو الحال بالنسبة لسلاف.. يجب أن أقاوم.. يجب أن أقاوم..)).

– هه.. لن تشعر بشيء..

حطّ عليه النعاس، فقاومه بقوة وقد أعطى حواسه دفقاً من الطاقة المقاومة.. وسمع بعضاً من الحوارات التي تدور حوله..

– هه.. بدأ المخدر يأخذ مفعوله..

– انظر يا دكتور جون، الخلية المزروعة في كبده بدأت تتكاثر..

– عظيم، بدأ الطعم يتبرعم..

- كم ستستغرق هذه العملية في رأيك؟

- ليس أكثر من أسبوع..

- وزوجته؟

- الوضع مختلف، زرعنا في رحمها بيضة ملقحّة، هي نتاج استنساخ بويضة أنثى غوريلا مع حيوانات منوية بشرية..

- وماذا تهدف هذه التجربة؟ بيضة ملحقة من غوريلا وبشري.. لا يبدو الأمر مفهوماً؟

- الغوريلا رمز للقوة الجسدية، والبشري المتفوق الذي أخذنا منه النطاف، هو أكبر علماء الفلك عندنا، نحن نريد هجيناً قويّاً خارق الذكاء..

- أتعتقد أن هذا الاختبار سيكتب له النجاح؟

- نعم.. لم لا.. سيكون الناتج كائناً خارقاً.. سوبر..

((آه.. يا إلهي، هذا ما فعلوه معك يا حبيبتي.. أشعر بالدوار.. آه.. يبدو أنني سأغيب عن الوعي.. آه..)).

غرق هاشم في نوم عميق، ورأى أحلاماً كابوسيّة عن كائنات غير مألوفة بشعة تزرع الأرض من حوله، ثم شعر كأنه

يسحب من نفق مظلم ثم يستيقظ..

– هه.. عدت إلى وعيك؟ أنت بخير يا أستاذ هاشم..

– نعم.. بدأت أعود إلى وعيي.. هه.. كيف حال زوجتي؟

– هي بخير.. وستراها بعد قليل..

فكّرَ بحزن: ((أية تجربة تخوضينها يا حبيبتي؟ آه يا إلهي، لا أكاد أتصور أنهم يعرضوننا لمثل هذه الاختبارات المرعبة..)).

(4)

شعر بألم في بطنه ينبض بتواتر مزعج.. ترى ما هي الخلية التي زرعوها له لتتكاثر فيما بعد؟ وحين نهض متمالكاً نفسه متجهاً نحو الحجرة المجاورة سمع تأوهات سلاف، فأحس بقلبه ينسحق.. لم يكن في وضع من يستطيع الصراخ أو الاحتجاج..

– لماذا تتألم زوجتي يا جون؟

– هي تشتكي من آلام خاصة.. يبدو أن زوجتك تشعر ببداية أعراض الحمل..

فكّر: ((الآن بدأتم توضحون الصورة، ياإلهي، سلاف متزوجة في رأيهم، وأنا زوجها منذ زمن كما في بيانات الدخول وجواز السفر المشترك..)).

– هه.. شردت؟ لا تبدو سعيداً بهذا الخبر..

– خائف على صحتها فقط..

– لا تقلق، نحن نراقبها جيداً.. وأنت هل تشتكي من شيء؟

– أشعر بوجع في أسفل بطني، الجهة اليسرى.. أستطيع

التحمل..

- لا تقلق، أنت تحت رعايتنا. الحكومة كلها مهتمة بأمركما انتبه لذلك جيداً. كل ما تطلبان سنحققه لكما دون تردد.

همس: - كيف حالك يا حبيبتي؟

- أنا بخير يا هاشم.. فقط هذا الوجع..

قال جون مخفّفاً:

- أعطيناها إبرة مسكن.. سيزول ألمها سريعاً..

قال هاشم بحنان: - ستكونين بخير إن شاء الله..

- خلال دقائق سنخرجها من هنا.. وسننقلها إلى البيت..

- أسمعت؟ كل شيء سيكون على ما يرام يا سلاف..

- إن شاء الله يا حبيبي.. أشعر بالأمان وأنت إلى جانبي..

- سأظل إلى جانبك إلى آخر العمر..

* * *

قال الكهل في البناء المجاور لبناء هاشم وسلاف:

- أترى يا بني؟ هذه عينات جديدة..

- عينات جديدة؟ تقصد هذه المرأة الممددة التي يحملونها

على نقالة..

– نعم.. هي في الجانب المقابل لبنائنا.. نحن مسؤولون عن راحتها وزوجها، حتى تنجح التجربة..

– أتعرف نوع هذه التجارب يا أبي؟

– أعتقد أن لها علاقة بالهندسة الوراثية كالعادة.. علماؤنا يقومون باختبارات كثيرة، وبعضها آية في القبح.. ويستخدمون عيّنات من الدول النامية ممن يتراكضون للهجرة إلى بلادنا..

– مساكين، يظنون أن لدينا الجنة والسعادة..

– يسعون وراء أحلامهم، ويعتقدون أنها تتحقق عندنا.. إعلامنا يسيطر على كل الإعلام في العالم.. وهو يوهمهم أن بلادنا فيها تحقيق لكل أحلام مساكين العالم..

– والعكس هو الصحيح..

– لا ترفع صوتك يا بني.. انتبه.. نحن زنوج..

– ولكنهم يصرّحون أنهم ضد التمييز العنصري..

– ليس هذا صحيحاً، ما دمنا نستخدم كأجراء وكمواطنين من الدرجة العاشرة..

- ولكن يوجد زنوج يتربعون على المناصب..

- ربما لخداع العالم بأننا متساوون..

تنهّد الشابّ: - هل سيمرّان بظروف صعبة؟ أشعر بالشفقة على هذين الزوجين.. هل سيجري لهما ما جرى للزوجين السابقين؟

- لا أدري يا بني ما هي الاختبارات التي أجريت لهما.. هذا يتعلق بنوع هذه الاختبارات..

* * *

ونما الحمل، وأشعرها هاشم إشفاقاً عليها أن حملها منه، فشعرت بسعادة، وظلّ مهموماً متعباً تشغله الأيام المقبلة..

وفي الاختبار الثالث، شعر أن شيئاً خطيراً يحدث حوله وقد استيقظ كما بدا له قبل الوقت المحدّد، وربما نما دافع داخله ليستيقظ كل مرة علّه يستمع لبعض الحوارات التي تجري بسرية مطلقة حوله بين طبيب وطبيبة:

- هه.. إنها في الشهر الثالث الآن..

- أرى الجنين في حالة جيدة، وربما ينجح الاختبار..

– تقصدين البشري السوبر، بجسم الغوريلا القوي وعقل عالم الفلك..

– نعم.. وصاحبنا أصبح الزرع مثمراً داخله، وقد حان وقت القطاف بعد أيام..

– ألن يتعذب؟

– سيتعرض لخطر شديد.. تعلم أن هذه العيّنات البشريّة التي قدمت إلينا من المعابر أتت مدفوعة للحياة السعيدة، ونحن نستغل هذا الاندفاع.. لو تعلم كيف اصطدنا هذين الزوجين بإغراءات معابر العبور التي أوقفناها عند المعبر السابع.. حتى زواجهما نعلم أنه ليس صحيحاً وقد رفضها المعبر الأول، فأوقفها هذا الشاب لتعود بصفة زوجته، وعرفنا بذلك، فتحاورنا في الهيئة العليا.. وقررنا تسهيل عبورهما، وإجراء الاختبارات المرعبة عليهما: – مسكينة تعتقد أنها حامل منه..

– وهو يحبها، وربما كان سعيداً بهذا الخبر؟

سمع هاشم الكلام وهو مثقل بالهموم، فالآتي أعظم، وربما سيكون مرعباً..

الفصل الرابع

الدخول في دائرة الخطر

(1)

أيـة مقـادير دفعتك يـا هاشـم لتـدخل هـذه الـبلاد الغريبـة التـي تجذب المرء إلى الأحلام الوردية، ولا يرى فيها سوى الكوابيس الحقيقية..

حقـائق بـدأ يراهـا، بكـل رعبهـا وقتامتهـا وهـو يتـابع مـا يجـري حوله وحول سلاف زوجته، التي تعرّف إليها على المعابر..

كـان حملهـا يكبر، وكانـت الخلايـا المزروعـة فـي بطنـه تتبـرعم أيضـاً.. وقد بـدأ يشـعر بانتفـاخ فـي بطنـه وهـو يخضـع لنظـام غذائي خاص بناءً على طلب الطبيب..

– أنت تشعر بانتفاخ، وربما تحتاج لعملية سريعة، ولكن يجب أن تظلّ مقيداً بنظام غذائي خاص..

((يبدو أن ما زرعوه في بطني سيقطفونه قريباً..)).

سألت سلاف الطبيب: – هل العملية خطيرة يا دكتور؟

– لا تقلقي يا حبيبتي، سأكون على ما يرام..

قال الطبيب هامساً لسلاف:

– هـه.. أنـت قلقـة عليـه؟ لابـأس، بصـراحة العمليـة ليسـت

سهلة، ولكننا سننجح في إجرائها..

– عملية من أي نوع؟

– هناك بعض الالتهابات في الكبد تسببت بوجود ورم سليم يجب إزالته بالجراحة..

– يا إلهي.. هه.. أمتأكد أنه سليم؟

– بالطبع.. وسنزيله قبل أن يتحول إلى خبيث..

شعر هاشم أن الطبيب يكذب على زوجته وهما يتهامسان، فقد بدت خائفة مرعوبة، وبدا غير مكترث..

وحين غادرهما، اندفعت إلى صدره تبكي:

– ما الذي جرى يا حبيبي؟ كيف أصابتك تلك الالتهابات؟ سيجرون جراحة لإزالتها.. أنا خائفة عليك..

– لا تقلقي، ليس هناك من خطر.. جسمي قوّي وسيقاوم، أنا متأكد..

فتح الباب ودخل جون ومعه بعض مساعديه:

– أهلاً بك يا جون.. خير؟

– سأصحبك إلى المركز لإجراء بعض الاختبارات والفحوص

المخبرية.. يبدو أنهم سيجرون جراحة لك غداً في الصباح..

قالت سلاف متلهّفة:

– ماذا تقول؟ قال لنا الطبيب قبل قليل أنّ الجراحة بعد أيام.. وليس غداً..

– يبدو أن زوجك في حاجة ماسة لإجراء هذه الجراحة قبل أن يتفاقم الوضع..

قال هاشم مستسلماً وقد شعر أن لا مجال لمقاومتهم: – أنا جاهز تفضل..

– سآتي معك.. هيا..

* * *

نقلتهما سيارة صحيّة إلى المستشفى.. وكان هناك طاقم طبّي كبير ينتظرهما.. ابتسمت الطبيبة المشرفة:

– أهلاً بك يا أستاذ هاشم..

– شكراً يا دكتورة..

– هيئ ذراعك، سنأخذ بعض السنتيمترات المكعبة من دمك للتحليل..

- ستجرون العملية؟

- نعم.. وبحضور مجموعة من كبار الجراحين..

همست سلاف للطبيبة:

- أنا خائفة..

- لا داعي للخوف، لدينا أمهر الجراحين.. ثم ليس هناك من خطر على زوجك، لا تقلقي ..

- تمدّد هنا من فضلك، ستدخل هذا النفق، ويصورك الجهاز في كل مناطق جسمك..

سألها جون:

- هل حضر البروفسور توماس؟

- إنه قادم، طلب مني أن أجهز المريض..

وفعلاً أطلّ الدكتور توماس الرجل الخمسيني الأشيب:

- كيف حالكم يا جماعة؟ هه.. مريضنا جاهز؟

- نعم يا سيدي..

نظر لسلاف الباكية:

- هه.. أنت زوجته؟

– نعم يا دكتور.. أنا خائفة عليه..

– لا تخافي، هو في وضع جيد، وسيفرح كثيراً حين تلدين له الطفل الذي تحملينه في بطنك.. أليس كذلك يا هاشم؟

– نعم.. نعم يا دكتور..

– هيا ليخرج الجميع من هنا، ولتبق الدكتورة كارولين معي.. هل أعطيته المخدّر أيتها الممرضة؟

– نعم يا سيدي، وخلال لحظات سيغيب عن الوعي..

– عظيم.. أغلقي الباب وراءك..

– هه.. بدأ يتخدر..

– سنهيئه للجراحة سريعاً..

– الآن؟

– نعم.. يحتاجون للكبد، فقد طابق نسيج أحد الحاخامات مع نسيج هذا الشاب..

– لم يكتمل التبرعم بعد كما أرى..

– سنأخذ بعضاً من كبده، هذا يكفي، ستنمو الخلايا النسيجية لتكتمل بعد نقل الكبد منه.. أعتقد أن كل شيء سيسير على

ما يرام..

- ألا يشكل ذلك خطراً على حياته؟

- ربما.. على كل حال لا تعنينا حياته كثيراً كما تعلمين.. نريد لاختباراتنا أن تنجح.. وإذا كان قوياً سيتحمّل كل شيء.. أقصد كل الاختبارات حتى ينهك الجسم وينهار..

كان هاشم الذي قاوم المخدّر يعاني من العذاب وهو يسمع ما يقولون:

((يا إلهي، لم أتوقع أن يكون جهاز الاختبار هو الكبد.. يا إلهي يبدو أن رحلة عذابي قد بدأت.. آه.. ليتني استجبت للمخدر..)).

لحظت كارولين: - جفناه يرفّان.. لم يتخدر بعد..

- المخدر الذي أعطيناه إياه شديد الفعالية، لا تقلقي، جفناه رفّا ربما لأن ردود الفعل الانعكاسية لديه قوية يا كارولين..

((آه.. بدأ الدوار الفظيع، كأنني أسقط في هاوية.. آه..)).

(2)

لم يعد هاشم يشعر بشيء، وشعر كأنه يدخل في عالم غريب من الكوابيس تحاصره فيها كائنات مرعبة، وهو بلا حول ولا قوّة.. ثم رأى سلاف وهي تحتضن غوريلا صغير، فشعر بعذاب فظيع..

أما سلاف فكانت خارج غرفة العمليات تنتظر بقلق بالغ.. ويبدو أن القدر أراد أن تعرف ما يخبئونه لهاشم فبدأت تلتقط كلمات غير مترابطة، ما لبثت أن فهمت منها كل شيء..

– عجّل يا مايكل، الرجل في خطر شديد..

– أحضرت بقايا من أكياس الدم الذي توفر في المختبر، ليس سوى هذين الكيسين..

– هات سنرى ما نستطيع فعله بهما.. اذهب الآن وحاول أن تدبّر أكياساً أخرى.. هناك نزف شديد في الكبد المقطوع..

– حسناً.. سأرى ما يمكنني فعله..

كانت ملهوفة وهي تتابع ما يجري بخوف شديد ((كأنهما يتحدثان عن هاشم، الممرضة تعرف أنني زوجته، ولكن

الرجل لا يعرف.. سأحاول اللحاق به ومحادثته..)).

صرخت به: – اسمع يا أخ.. اسمك مايكل، أليس كذلك؟

– نعم.. من أنت؟

– أنا باحثة هنا، هه.. أراك في لهفة وقلق..

– نعم.. أدخلوا شاباً للعملية، لاستئصال خلايا كبدية منه..

– خلايا كبدية؟

– زرعوها منذ نحو أربعة أشهر، والآن حان وقت قطافها، شكّلت ما يشبه كبداً آخر.. حيث تطابق نسيجه مع نسيج أحد الأناس المهمّين وهم يحاولون قصّه بدقة لإرساله من أجل إسعاف ذلك الرجل المهم..

– آه فهمت..

– ألم يحدثوك عن الاختبار؟ إنه سلسلة هامة من العمليات التي تتم بنجاح.. بدأت بهذا الشاب وزوجته..

– زوجته؟ ماذا فعلوا بها؟

– أنت تسألين أسئلة كثيرة، ماذا تعملين بالضبط، وفي أية شعبة أبحاث؟

– أنا في شعبة الجرثوميات، اسمي الدكتورة سارة..

– هـه.. أستودعك الله يـا دكتـورة سـارة، آسـف، سـأبحث عـن أكياس دم جديدة لذلك الشاب.. قد ينجو من الخطر..

لحقت به:

– أرجوك، قل لـي مـاذا فعلوا لزوجـة الشـاب؟ مـا نـوع الاختبار الذي جرّب عليها..

– لا أدري فعـلاً، ولكـن حسـبما سـمعت، إنــه اختبـار شـديد الأهمية أيضاً.. عن إذنك.

أصـاب سـلاف الـذهول وهـي تتلقـى هـذه الأنبـاء غيـر السـارة عنهـا وعـن هاشـم.. انفجـرت الـدموع فـي عينيهـا، فجلسـت فـي مكان منزو وبدأت تبكي بصمت.. يبدو أن القادم ليس سهلاً عليهما..

((يـارب نجنـا مـنهم، ليسـت بـلاد المـال والسـعادة، بـل بـلاد الشقاء.. ويلـي عليك يا هاشم.. مـاذا يفعلـون لـك؟)). انفجـرت تبكـي وقـد أذهلهـا مـا عرفتـه مـن معلومـات.. سـمعت نحنحـة وراءهـا وصـوت عكـاز ويـد تربـت علـى كتفهـا.. التفتـت لتجـد

عجوزاً زنجية تبتسم في وجهها مشجعة:

– خير يا ابنتي أراك تبكين؟

تمالكت نفسها:

– أنا بخير يا خالة..

– أنت عربية وتبكين، وفي مستشفى؟ لابد وأن المشكلة خطيرة..

– نعم يا خالة بل هي مشكلة متوحشة قاسية، لم أر في حياتي بمثل فظاعتها..

– اهدئي يا ابنتي، البكاء لا يحل لك مشكلة..

سألتها سلاف:

– أنت تزورين مريضاً؟

– جئت لزيارتك وزوجك.. ابني يعمل في الحديقة والحراسة في المنزل الذي تقيمان فيه.. سمع هو وحفيدي – ابنه – عن خطورة الأبحاث التي يجرونها عليكما فعرف أن حياتيكما في خطر شديد..

– هو من دفعك للمجيء إلى هنا؟

- لا يا ابنتي.. قبلكما كان هناك زوجان يسكنان في نفس الشقة وأتيا عن طريق المعابر، وقتلتهما الاختبارات التي يجريها مركز البحوث الرسمي في مدينتنا.. بصراحة خفنا عليكما أيضاً..

- هذا يعني أننا في خطر شديد؟

- نعم.. وأين زوجك الآن؟

- يجرون عليه جراحة شديدة الخطورة، وقد زرعوا في بطنه خلايا يبدو أنها نمت، وصارت صالحة للقطاف كما علمت..

- وأنت؟

- أجروا علي اختباراً، ولكني لا أعرف عنه شيئاً ولا زوجي يعرف عنه شيئاً..

تنهّدت بإشفاق: - كيف لي أن أساعدكما؟

- أنت يا خالة؟! مستحيل.. أنت لا تستطيعين إنقاذنا منهم، نحن لا نتحرك إلا في حراسة مشددة، لا يمكن الانفلات منها..

قطع عليهما الحديث صوت خشن وراءهما.. كان صوت

الحارس الذي يرافقهما هي وهاشم في كلّ تحركاتهما:

– أتضايقك العجوز يا سيدتي؟

– لا.. أبداً، أنا بخير، أنتظر خروج زوجي من العملية..

– تعرفينها؟

– قابلتها هنا.. هي عجوز مسكينة لا حول لها ولا قوة..

– لا تبادليها الحديث، قد تؤذيك؟ تبدو أشبه بساحرة؟

– حسناً، سآخذ حذري منها.. أشعر بالملل والخوف، وأنا انتظر خروج زوجي من العملية..

– لا بأس، ولكن خذي حذرك..

ابتعد عنهما وجلس قرب باب الردهة.. سألتها العجوز:

– حذرك من تبادل الحديث معي؟

– نعم يا خالة.. شبّهك بالساحرة..

– يبدو أنكما في دائرة صعبة، لا أحد يستطيع الدخول فيها، ومعرفة ما يجري لكما.. ليتني أستطيع التدخل..

– وماذا باستطاعتك أن تفعلي؟

– أهربكما بعيداً عن الموت..

بكت منفعلة:

– زوجي الآن بين أيديهم، يشرحونه، يعبثون بجسده، لا أدري إن كان سينجو من عملياتهم الجراحية، كيف لك أن تهربيه وهو في أسوأ حال؟ ليتك تعرفينه، هو رجل ولا كل الرجال، لطيف، شهم، نبيل، جريء.. ويحبني بصدق ..

– اهدئي يا ابنتي، قد يعود الرجل الذي يراقبنا إلى هنا، قد يفصلك عني.. اذهبي واستفسري عن زوجك، وسأظل بانتظارك.. قد أعثر على حل..

– يبدو هذا الحل مستحيلاً بالنسبة لحالتي..

تشدّدت وهي تنهض: – سأذهب وأسأل عن زوجي.. أرجو أن أراك هنا حين أعود..

* * *

(3)

كانت تشعر بيأس فظيع وهي تقترب من غرفة العمليات..
سألت الممرّضة:

- ألم تنته العملية بعد؟

- زوجك بخير، والعملية ناجحة تقريباً.. نحتاج لبعض الدم، لقد نزف كثيراً..

- زمرة دمنا متشابهة، أستطيع أن أتبرّع له..

- أنت حامل، قد يؤثر تبرعك بالدم على الجنين، هذا مستحيل..

ثمّ شهقت وهي تبصر مايكل يقترب:

- ها.. مايكل، أمنت الأكياس؟

كان يلهث: - أمّنت كيسين من الدم فقط..

- أعتقد أنها كافية..

كان هاشم يعاني، وكوابيسه تتلاحق، وكأن أمه كانت تجلس إلى جواره وتمسح له جبينه وهي تبكي:

- ويلي عليك يا ولدي.. هؤلاء الأنذال يغتالون جسدك..

– أماه أريد أن أذهب معك، تعبت..

– لا يا ولدي.. امرأتك بحاجة إليك.. هي في محنة أيضاً..

((نبضه يتلاشى.. كأن قلبه يتوقف.. الضغط ينخفض كثيراً.. جاؤوا بأكياس جديدة من الدم، قد نتمكن من إسعافه..)).

– أماه.. لا تتركيني، أشعر بالخوف..

– ستكون بخير، يجب أن أذهب الآن.. قلبي معك يا حبيبي.

– الكبد المستنسخ بوضع جيد..

قالت كارولين:

– ولكن وضع المريض يتجه نحو الانهيار التام رغم ضخ الدم..

قال توماس:

– قمت بخياطة جزء الكبد المفتوح، وقد توقف النزف..

– سأستدعي (كاسيوس) فقد ينجح في إعادة القلب إلى وضعه الطبيعي.. أرجوك لا ترفض..

– ذلك الزنجي العملاق.. اسمعي يا كارولين، لست مهتماً بحياة هذا الشاب، وأنا أكره ذلك الزنجي الذي قد يحمل قضية

هذا المريض لتصبح قضية رأي عام..

قالت كارولين:

– أنا أضمن لك سكوته.. لن يتكلم بشيء.. أرجوك..

– حسناً، للمرة الأخيرة.. لأنك ساعدتني كثيراً في هذه العملية، ونجحنا معاً في فصل الكبد الوليد..

– شكراً لك..

ضغطت أزرار هاتفها النقّال:

– دكتور (كاسيوس)؟

سمعت صوته: – أهلاً دكتورة كارولين.. خير؟

– أرجوك، نحتاجك في غرفة الجراحة رقم (30).. المريض في خطر شديد، ويهمني أمره..

قال باهتمام: – أنا قادم حالاً..

* * *

عادت سلاف إلى العجوز.. وهي حزينة:

– مازال في غرفة العمليات؟

– نعم يا خالة.. قلبي يأكله القلق عليه..

- أشعر أنه سيتعافى، حاستي السادسة لا تكذب أبداً..

- ليتها تصدق هذه المرة يا خالتي..

كانت هناك خطوات تقترب بوقع خاصّ جعل العجوز تقفز:

- إنّه ابن أخي كاسيوس..

كان رجلاً سميناً يمشي متمايلاً.. صرخت به: - كاسيوس، إلى أين؟

- آسف يا عمتي، لديّ مريض بحالة خطيرة..

- مريض بحالة خطيرة؟ آه.. لاريب أنّه زوج هذه الصبية، أرجوك، حاول إسعافه يا بني..

ردّد وهو يبتعد: - إن شاء الله يا عمتي..

وضعت يدها فوق كتف سلاف:

- إنه ابن أخي، جراح شهير، ورغم أنهم يكرهونه بسبب لونه، إلا أنهم يستعينون به دائماً..

- جاء من أجل زوجي هاشم؟ الحمد لله..

- اسمعي يا ابنتي، قلت لي أن اسمك سلاف، أنا اسمي (كاملة) وكاملة لن تتخلى عنك أبداً، ولكن يجب أن نكون

حذرين.. سأذهب الآن، وأهيئ لكما الظروف كما لو كان زوجك سيستعيد عافيته حسبما تمليه علي حاستي السادسة..

– ستتركيني؟

– معاذ الله أن أتركك، سأظل على تماس معك، وأعرف الوقت المناسب لذلك، لا تقلقي خالتك كاملة معك إن شاء الله وستنقذك من هؤلاء الأنذال..

– في حفظ الله يا خالتي كاملة..

– في حفظ الله يا ابنتي..

لم يضع كاسيوس وقته، فبدأ يدرس الحالة الخطيرة التي يتعرض لها هاشم.. ثمّ قال هازّاً رأسه محتجّاً:

– أنت لم تحسن خياطة الكبد في المكان الذي فصلت به الكبد المتبرعم.. معقول يا دكتور توماس؟

– العملية ليست مهمة، أجريت الخياطة بسرعة، ويبدو أن هناك ميوعة في دمه وهذا ما يمنع التخثر..

– كأنك تريد قتله.. الدم ينزّ هنا.. هه.. سنخيطه هكذا.. وهنا أيضاً، الخياطة ليست صعبة.. خياطة الجرح تحتاج إلى دقة

واهتمـام.. فالـذي تخـيط لـه الجـرح هـو إنسـان لـه حـواس، ومشاعر..

قال ساخراً: – هه.. بدأت خطاباتك التي لا تنتهي..

– لا بأس، يبدو أن كلماتي أشعرتك بالإهانة.. أنا آسف..

همست كارولين:

– أرجوك يا دكتور توماس أن لا تغضب لكلماته..

– لا باس.. وإن كان يقرفني لونه الأسود..

– ولكنه ماهر ومتفوق في عمله، انظر كيف أوقف النزيف وبدأ عملية الإنعاش بكل ثقة..

كان كاسيوس يتحدّث مع هاشم هامساً:

– هيا يا بنـي، هيا، يجب أن تنتصـر علـى وضـعك الصـعب، هيا.. هيا..

– إنه يعود إلى طبيعته، النبض ينتظم وكذلك الضغط..

قال توماس بسخرية:

– لـن يعـود إلـى طبيعتـه سـريعاً.. وضـعه صـعب، وأجهـزة جسمه لم تتناسق فيما بينها بعد..

(4)

شعر هاشم أنـه يخـوض صـراعاً مـع قـوى غيـر منظـورة وهـو يختـرق نفقـاً مظلمـاً وأصـوات صـراخ حـادّ تصـله مصـحوبة بزعيق يكاد يخرق طبلة الأذن..

كانت سلاف قلقة وهي تنتظر خارج غرفة العمليات وقد مر الـزمن ثقـيلاً بطيئـاً، وأخيـراً خـرج الـدكتور كاسـيوس.. فهرعـت إليه:

– أرجوك يا دكتور، هل زوجي بخير؟

همس: – أعتقد أنـه سيستعيد صـحته.. لمـاذا جئتمـا إلـى هذه البلاد الملعونة؟ ألم يكن لديكما خيار آخر؟

تركهـا مدهوشـة وهـو يبتعـد بخطـاه الواثقـة.. هرعـت تطـرق البـاب.. فتحـت الممرضـة منزعجـة.. وحين رأت سـلاف هدأت قليلاً:

– مـاذا تريـدين؟ آه.. أنـت؟ تريـدين رؤيتـه؟ لا بـأس، سـأطلب مـن الـدكتور تومـاس أن يسـمح لـك بـذلك بعـد دقـائق.. لـم يستيقظ بعد من المخدّر..

– حالته خطيرة.. أليس كذلك؟

– كانت حالته خطيرة فعلاً والآن استقر الوضع، لا تقلقي..

– آه.. يا إلهي..

اقتربت منها كارولين: – هه.. كيف حالك؟ زوجك بخير وسيكون بخير إن شاء الله..

– متى أراه؟

– سترينه بعد قليل.. ولكن لا يمكنك محادثته، لن يكون في وعيه قبل المساء.. كانت عمليته شديدة التعقيد..

– أزلتم الورم؟

– نعم.. ولن يشتكي منه أبداً، الكبد سليم الآن..

همست: – عملنا المستحيل ليعود إلى طبيعته، قام الدكتور كاسيوس بعمل خارق..

سألتها الممرّضة: – أتريدين شيئاً يا دكتورة كارولين؟

– لا.. لا.. عودي إلى عملك..

– حسناً، سأعود لأعتني بالمريض، قد يستيقظ فجأة..

– أرجوك ساعديني لأراه حين يصبح وضعه جاهزاً..

– طيب.. رؤيته فقط.. لن تريه صاحياً قبل المساء..

كانـت أيامـاً صـعبة وشـديدة السـواد بالنسـبة للـزوجين، وقـد صدقت نبوءة (كاملـة) فهاشم عاد لوعيـه، وبـدأت التحضـيرات لرحلة الهرب التي بدت مستحيلة..

الفصل الخامس

نهاية الكوابيس

(1)

ها أنت يا هاشم في دائرة غريبة مليئة بالكوابيس، فحين صحوت في غرفة العمليات، وأنت تشعر بآلام فظيعة في بطنك، ورأيت وجه سلاف الباكي، تشدّدت وأطلقت عبارات المحبة من فمك، رغم كل آلامك الداخلية..

- أنت هنا يا حبيبتي؟ أنا بخير لماذا تبكين؟

- حمداً لله على سلامتك يا هاشم..

قالت كارولين مظهرة الابتهاج:

- أرأيت؟ هو بخير، لقد عرفك فوراً..

- الحمد لله، ألا يحتاج لمقويات؟ وجهه شديد الصفرة..

- سنغذيه بالمقويات حسبما يأمر الجهاز الطبي المشرف عليه..

- عاد للنوم من جديد.. يعلم الله متى يسترد عافيته..

قال توماس وهو يتفرّس فيها:

- هه، قلقة عليه؟ لا تخافي، هو بخير..

- وجهه شديد الشحوب، أزال الخطر عنه يا دكتور؟

- أعتقد ذلك، ثم أنه سيظل تحت المراقبة في غرفة العناية المشددة لمدة أسبوع حتى يتعافى..

همست كارولين: - مادام الدكتور توماس قد طمأنك عليه، فلا تقلقي..

لكنها كانت في دائرة الهواجس المرعبة فما سمعته من العجوز السوداء (كاملة) والجملة التي رددها الدكتور كاسيوس قريبها حول وضعها هي وهاشم، كل ذلك زاد قلقها وخوفها..

((ترى ما الذي يخبئه القدر لنا؟ وما هي الاختبارات التي أجروها علينا؟ ليتك معي يا خالة كاملة وأنا أجترّ عذاباتي هنا.)).

وفجأة سمعت صوتها: - لماذا تجلسين هنا في الخارج، لماذا ليس قرب زوجك؟

- خالتي؟ كنت أفكر فيك..

- وأنا لم تفارقيني أبداً.. صحيح، لماذا تجلسين هنا؟

- إنه في غرفة الفحص، عندما ينهون اختباراتهم سيعيدونه..

- طَلبتُ من كاسيوس متابعة حالته، ووعدني بذلك.. اسمعي

يـا ابنتــي.. مـا يجـري لكمـا مخطـط لـه، مـا تفاصـيل هـذا المخطـط؟ لا أدري.. المهـم أننــي سأسـاعدكما بكـل قـوتي ومعـارفي.. حتـى أنقـذكما مـن المـوت، وأهربكمـا إلـى مكـان آمن.. لا أريد أن أراكما ميتين كما رأيت من كانا قبلكما..

– أنت الأمل والرجاء يا خالـة كاملـة.. لولا ظهورك كالملاك في حياتنا لقتلني اليأس..

انبعث صوت خطوات ثقيلة وراءهما:

– ماذا تفعلين هنا أيتها العجوز، لا تزعجي السيدة بأحاديثك المملة..

– وكيـف عرفـت أنهـا مملـة؟ أنـا أهـدئ روع السـيدة، زوجهـا بالعناية المشددة، وأنتظر مجيء حفيدتي، لديها مراجعة طبية هنا..

– لا تزعجي السيدة، ابتعدي عنها..

قالت سلاف: – هي لا تزعجني.. هي لطيفة جداً ..

قال جون بلهجة حادّة فاجأت سلافاً:

– يمكنك العودة إلى غرفة زوجك، انتهت اختباراته..

همست لكاملة: – سأراك لاحقاً.. لا تقلقي عليّ، سأظل معك دائماً..

وأتى الدكتور كاسيوس، وأدخل بعض الأدوية في علاجات هاشم، وهذا ما عجّل بشفائه، حيث خرج من المستشفى وسلاف تكاد لا تسعها الدنيا من الفرحة رغم قلقها وكوابيسها..

* * *

(2)

أوصلهما جون إلى البيت:

– سنؤمن لكما ما تحتاجان.. إنها فترة نقاهة زوجك.. يجب أن تعتني به جيداً حتى يسترد قوته بسرعة..

– لا تختلطي كثيراً بالزنوج هنا.. يوجد الكثير منهم في الجوار، قد يؤذونك وزوجك.. انتبهي لنفسك..

– شكراً على نصيحتك، سأنتبه جيداً.. إن شاء الله.. مع السلامة.

غادرهما بسيارته.. تأمّلته وهو يبتعد.. ثمّ سمعت صوت كاملة المقترب خلفها فصرخت بحبور:

– خالتي كاملة، أنت هنا؟

أدخلتها البيت وهي تظهر سعادتها.. تأمّلت كاملة هاشماً وهي تهزّ رأسها:

– جئت أطمئن عليه، عاد الاحمرار إلى وجهه..

حاولت إبقاءها ولكنّها همست:

– اسمعي يا ابنتي، لا أريد أن أعرضك لمضايقاتهم، انتبهي

جيـداً، قـد يكـون البيـت مليئـاً بكـاميرات المراقبـة وأجهـزة التصنت.. سأراك في الوقت المناسب..

خرجت وهي تبتسم مشجّعة.. وحاولت سلاف إن تخفّف من اهتمامها بها وقد أيقنت فعلاً أنّ البيت مزروع بالعديد من كاميرات المراقبة.. وهو شيء منطقي لمن هم في مثل حالتها وهاشم..

* * *

بدأ هاشم يعود لطبيعته، وقد زاره كاسيوس عدة مرات مولياً إياه العناية الفائقة.. وكان يهمس إليه في كل مرة..

((يجب أن تغيّر من طبيعة حياتك، البيئة هنا غير ملائمة لحياتكما، حاول تبديلها..)).

ولم يكن هاشم يجيبه سوى بهزة من رأسه.. أما سلاف فكان بطنها يكبر ودون أن تنتبه أعطوها حقنة قالوا عنها أنها مقوية للحمل، كادت تقتلها من الألم.. وحنا عليها هاشم..

– ما الذي جرى لك يا سلاف؟ بماذا حقنوك؟

– قالوا أنها حقنة مقوية..

- حقنة مقوية؟

((يا إلهي، إنهم يعبثون بالجنين، يعلم الله أية أغراض مبرمجة يبغونها..)).

قالت متألمّة: - سأكون بخير، سأتناول حبتي مسكن..

- من النوع الذي وصفه لك الدكتور كاسيوس، الذي لا يضر بالجنين؟

- نعم.. أحضر لي الماء يا حبيبي..

أحضر لها كأساً من الماء وهمس بحنان:

- تشدّدي سأصحبك في المساء إلى حديقة الملاهي، الخالة كاملة تنتظر هناك..

كانا حريصين أن لا يتكلّما في أي أمر هامّ سوى همساً حتّى لا تلتقط كلماتهما كاميرات المراقبة وأجهزة التنصّت.. تهامسا من جديد:

- إن شاء الله سأتحسّن وأرى الخالة كاملة.. مشتاقة لها كثيراً..

- حاولي أن لا تحركي شفتيك حتى لا يلتقطوا فحوى حديثنا

بكاميرات المراقبة..

– أمعقول ما يجري؟! نحن نخضع لمراقبة دقيقة كأننا مجرمان..

– أعاننا الله على هذه الأيام الصعبة.. سأغيب لدقائق وأعود، لا تقلقي علي، سأحضر بعض الأغراض التي نحتاجها..

كانت الصور البانوراميّة قد أظهرت الجنين الذي تحمله ككائن ضخم غير واضح المعالم مع أنه في شهره الخامس، وقد ارتأى الطبيب المكلّف إعطاء سلاف جرعة مقوية من أجل الجنين، وهذا الوضع الجديد جعل مركز الأبحاث يولي أهمية مضاعفة لحمل سلاف:

– رغم أن البيضة الملقّحة هي بويضة أنثى غوريلا لقحت بحيوانات منوية بشرية في محاولة لجمع القوة والذكاء (قوة الغوريلا وذكاء البشري) كما نرغب في تلك العمليّة من الزرع الاستنساخي، وقد أخذت الحيوانات المنوية من نطاف أكبر علماء الفلك عندنا.. إلا أن هذه النتيجة التي نراها تبدو غير

مفهومة..

– المشكلة أن الاختبار بني على فرضية قد تكون خاطئة..

– ثم أن هناك اختلاطات كثيرة تعاني منها الحامل، مسكينة كلما تقدم بها الحمل كلما تعرضت للموت الفجائي الذي قد يأتي دون إنذار..

– وماذا سنفعل الآن؟

– سنخترق الغشاء الذي يحيط بالجنين لندرس طبيعة خلاياه..

– ومتى سيتم ذلك؟

– غداً صباحاً.. هكذا اتفق أعضاء اللجنة العلمية غداً في نحو الساعة العاشرة.. ستكون معنا بالتأكيد يا دكتور كاسيوس؟

– نعم.. نعم..

* * *

(3)

كانت العجوز كاملة تتابع ما يجري عن طريق الدكتور كاسيوس، وعن طريق أحفادها المحيطين بمنزل هاشم وسلاف.. وقد شعرت أن الخطر يحدق بالصبيّة، وأن الاختبارات التي يجرونها عليها شديدة الوحشية..

وهكذا أرسلت لهما من يستدعيهما إلى حديقة الحيوان في مركز المدينة.. وحين خرجا من المنزل، كانا يميلان على بعضهما بحب وظهرا كعاشقين صغيرين، يتنزهان بعيداً عن الأعين.. أثار ذلك قلق المراقبين:

– إنهما يتمشيان ويخرجان بالتدريج خارج نطاق الدائرة المحددة لهما.. ماذا سنفعل يا سيدي؟

– راقبوهما، إن شعرتم بأية حركة غريبة، استدعوا اللجنة الأمنية..

– سنفعل يا سيدي..

كان هاشم وسلاف يسيران ملتصقين بمحبّة:

– لا أدري ماذا تريد منا الخالة كاملة؟ أصرّت على أن نلتقي

هناك، وفي مكان غير مزدحم..

- أشعر أنها الملجأ الأمين لنا وسط هذه الرقابة المرعبة..

- معك حق يا حبيبتي، هه.. جون يراقبنا من بعيد..

- لم نخرج عن المألوف، نحن لا نختلط بالناس، ولا نقوم بعمل غير شرعي..

حاذاهما جون:

- يا أستاذ هاشم إلى أين تتجه وزوجتك؟

- نحن نتمشى.. المدينة ليست كبيرة، سنصل المركز التجاري في المدينة، ونعود.. هل هناك من مانع؟

- لا.. أبداً.. ولكن السيدة سلاف ستذهب إلى المركز الطبي في الصباح، لديها مراجعة ملحة..

- لا بأس.. سأرافقها في الصباح إلى هناك..

- سنصل قبل التاسعة بسيارة المستشفى ونذهب معاً.. اعتن بها جيداً هذه الليلة.

- لا تقلق يا جون.. هه.. هل من طلبات أخرى؟

- لا.. أنا آسف، خذا راحتكما.. أتريدان أية مساعدة؟

- لا.. لا أظننا سنحتاجها..

- اضغط زر الجهاز على خصرك، سنكون خلال دقائق قربك..

أبلغ جون رئيسه ما جرى بالهاتف، فقال له:

- أحكما مراقبتهما جيداً، وإن كنا نخمّن أن لا خطر عليهما..

- إنهما يتجهان إلى مركز المدينة..

- لا بأس، فبعد أن عاد هاشم إلى قوته الطبيعية يحاول أن يخفف عن زوجته.. لا بأس، هذا أفضل للجنين وللعملية التي ستجريها غداً..

* * *

- انتبه يا ديلما، أريدك أن توصلهما لي ببراعة ودقة، بحيث لا يشعر الرقيب إلا وأنهما اختفيا فجأة..

- لا تقلقي يا جدتي، أنا بارع ودقيق كما تسمينني..

- الخطر عليهما شديد يا بني، ولا مكان للخطأ في عمليتنا..

ثمّ تكلّمت بالهاتف مع شاب زنجي آخر:

- اسمع يا (ميران)، نسّق مع ديلما كل شيء..

- لا تخافي يا جدتي، العملية مضمونة..

- سيصلان بعد لحظات إلى حديقة الحيوان، انتبه جيداً..

- أنا أراقبهما، وصلا إلى الباب الشرقي الآن.. هناك أكثر من أربعة عناصر مراقبة يكادون يلتصقون بهما..

- لا أخاف عليك، تعرف كيف تتسل من بينهم وتوصلهما إلي.. هه.. ديلما سيكون قربك بعد قليل.

(4)

دخـلا مـن البـاب الواسـع بعـد أن قطعـا تـذكرتين واندسّـا بـين النـاس، ولـم ينتبهـا إلـى ذلـك الشـاب الأسـود الـذي غـرس فـي لباس كل منهما دبوساً صغيراً برأس كروي..

تأوّهت سلاف: - أشعر بوجع في أسفل بطنـي..

- ماذا تقولين؟ كنت على ما يرام قبل قليل..

- آه.. المغص يزداد، سنجلس على ذلك المقعد هناك..

- طيب.. سأساعدك، تعالي يا حبيبتي ..

كانـت أصـوات القـرود المشاكسـة تثيـر فضـول زوّار الحديقـة.. وخاصّة الأطفال الذين تجمّعوا أمام قفص للقرود الصغيرة..

قـال هامسـاً: - نجلـس علـى المقعـد المقابـل لأقفـاص القـرود.. إنـها تزداد حركة..

((إنـها تراقبنـا، كـأن تلـك الغوريـلا تنظـر لسـلاف نظـرة غريبـة.. يـا إلـهـي، معقـول؟ أيـة مأسـاة أوصـلوك إليهـا يـا حبيبتـي، حمـل غريب بلقاح غريب غير مسبوق..)).

انتبهـت سـلاف: - مـا بـك؟ إنـك تنظـر نحـو القـرود شـارداً،

وتتأمل تلك الغوريلا بعمق.

– هه.. أفكر فيك، هل أنت بخير الآن؟

تشدّدت محاولة كتم تأوّهاتها:

– خفّ المغص الآن.. أنا أعود إلى طبيعتي..

– وأنت تتأوهين؟ لم تعودي بعد إلى طبيعتك..

اقترب منهما بعض الناس:

– هه، ما بكما؟ السيدة تتألم؟

– نعم.. كانت تشعر بوجع أسفل البطن.. ارتاحت الآن ..

فكّر بقلق: ((يجب أن نصل إلى الخالة (كاملة) لنعرف ما يخطط لنا..)).

قالت متشددة: – أنا بخير، يبدو أن المشي أتعبني..

وبرز جون إلى جانبهما فجأة:

– متأكدة؟ بلحظات أحضر لك سيارة الإسعاف..

– نعم.. أنا بخير يا جون.

حدّثت نفسها: ((يجب أن أقاوم، ربما يكون لدى الخالة كاملة حلّ لمشاكلنا.. يا رب ساعدنا، أشعر أن هذه الأوجاع تأخذ

أشكالاً جديدة..)).

عاد جون يسأل: – أنت بخير؟ متأكّدة؟

قال هاشم: – لا تقلق عليها.. أنا معها.. إنّ جدّ شيء سنكلّمك سريعاً..

– حسناً.. انتبها لنفسيكما..

* * *

كانت هناك حركة تجري حولهما ومكالمات هاتفيّة تدور بين شبّان سود البشرة:

– ميران، انتبه بدأا يتحركان، السيدة تعاني من الألم كما يبدو..

– يجب أن يدخلا السوق التجاري رقم (12)، سيسهل علينا عندها إخفاءهما..

– كاميرات المراقبة تتحرك في كل مكان..

– ليست أول مرة يا ديلما، لا تقلق..

كانت (كاملة) تنتظر بفارغ الصبر وصول الزوجين، وهي في غرفة ضيقة تطل على السوق التجاري رقم (12).. كانت

معركة تخوضها لمقاومة هذه الاستباحة لحقوق الإنسان، التي تقوم بها القوة العظمى..

كان هاشم يسند سلاف المتألمة وهي تحاول التماسك وقد التف حولهما فجأة جمهور من الراقصين ما بين شبان وشابات معظمهم من السود، وخلال لحظات وجدا نفسيهما في غرفة مظلمة..

– ماذا يحدث؟ لماذا نحن هنا؟ لا أرى شيئاً..

– أنا خائفة يا هاشم..

وفجأة برزت كاملة على جانبهما:

– لا تخافا.. أنتما معي الآن.. هيا نخترق النفق..

كان نفقاً شبه مضاء يمتد لمسافة كبيرة.. سرعان ما ظهر فيه بضعة شبان وضعوا الزوجين في عربة صغيرة في اتساع النفق وكاملة تهمهم..

– نجحنا في أخطر مرحلة.. أنتما في أمان الآن..

* * *

كانت الأجهزة تهتزّ.. والهواتف المحمولة تطنّ وأصواتها

ترتفع.. وكاميرات المراقبة تجوس في كلّ مكان:

- كيف اختفيا هكذا؟ مستحيل..

قال جون:

- غير معقول! لم أكن أبعد عنها أكثر من نصف متر..

- سبحا بين أمواج الراقصين واختفيا فجأة..

- كل كاميرات المراقبة، حتى التي تصور الأشعة تحت الحمراء لم تستطع تبيان مكان اختفائهما وكيف اختفيا..

- سيدي لم نعثر عليهما.. تحاول الكاميرات المختلفة تعقب آثارهما، جندنا العديد من الخبراء لملاحقتهما..

- هل هو حادث مدبر؟ أم أن العملية فيها اختطاف؟

- لا أعتقد أنه حادث مدبر قاما بفبركته.. ثم من سيلجأ لخطفهما وكل اختباراتنا عليهما شديدة السرية..

- ربما كنا مخترقين يا جون.. نفذت عيون أعدائنا إلى داخل أبحاثنا واختباراتنا العلمية..

- لا أعتقد يا سيدي، ربما كان الأمر عرضياً ..

* * *

كانت كاملة تدور بقلق حول الشابين:

– كاسيوس، أريد معرفة حقيقة ما يجري لهذين الشابين، لماذا تتألم سلاف؟ وما الذي حدث لهاشم؟

– آه.. ماذا أقول لك يا جدّتي؟ هاشم زرعوا خلايا في كبده، تكاثرت حتى شكلت تجمعاً خلوياً أشبه بكبد جديد، أجروا عليه جراحة لفصل الكبد الجديد عن الكبد الأصلي، كادت تقتله، ولولا مثابرتي وصبري في خياطة مكان القطع والبتر، لمات دون اكتراث..

– وسلاف هذه المسكينة المعذبة؟

– قصتها مختلفة..

– ماذا؟ ماذا فعلوا بها؟

– أمر غير معقول، حتى الآن أنا لا اصدق...

– هي حامل كما أعلم.. هل للأمر الذي تقوله علاقة بهذا الحمل؟

– بل هو الحمل فعلاً.. هو حمل صناعي، لقاح بين بويضة أنثى غوريلا ونطاف بشري، اعتبروا العملية استنساخاً لكائن

قوي الجسم كالغوريلا ومتفوق بذكائه كعالم من البشر..

– المسكينة هي في بداية شهرها السادس..

– والجنين غير واضح المعالم، كانوا سيحقنونه بمواد خاصة من داخل الغشاء لإظهار ملامحه كما يقولون..

– يا إله السماوات، أي أنذال هؤلاء! استباحوا الإنسان بكل وحشية.. هه.. وماذا سنفعل لهما؟

– هاشم أمره ليس صعباً.. علينا مراقبته حتى لا تتدهور صحته من التهابات الكبد الوبائية..

– وسلاف؟

– سنجري لها قيصرية لإخراج هذا الجنين المشوّه بالتأكيد من بطنها، ثم نعطيها مقويات وأدوية حتى تستعيد عافيتها..

– ومتى ستبدأ هذه الجراحة؟

– بعد ساعات، لا مجال للانتظار..

– أعتمد عليك يا بني.. أريد أن أخلص هذين المسكينين من قسوة حكومتنا..

– لا بأس، سننجح إن شاء الله..

لم تكن العملية سهلة، فلقد تشبث الجنين المبهم الشكل بجدار البطن، ولم يكن غشاؤه منفصلاً كما هو الحال في الأجنة البشرية.. كان كائناً مختلفاً هامداً بلا ملامح.. سبّب ذلك قلقاً لكاسيوس مع مساعديه:

- وماذا سنفعل يا دكتور كاسيوس؟ الوضع ليس سهلاً..

- هذه أول مرة أرى فيها جدار المشيمة ملتصقاً تماماً بالبطن..

- سنترك الجدار والغشاء، ونخرج الجنين فقط..

- قد تسبب لها هذه العملية أذى جسدياً.. وربما كان هذا الأذى قاتلاً..

- ليس هناك خيار..

- معك حق..

أخرج كاسيوس الجنين حيّاً، ووضعه في سائل شبيه بالسائل الأمينوسي دون أن يخبر سلاف أو هاشم.. وأغلق الجرح.. وهو خائف من حدوث اختلاطات لدى سلاف..

- اضطررنا لإخراج الجنين، لم يكن وضعه سليماً، وحين

فحصناه تبيّنا أنه ميت، وهذا يشكل عليك عبئاً قد يقتلك.. أنا آسف..

بكت: – سيحزن هاشم كثيراً فهو أول ولد لنا..

– لا بأس، سأتكلم إليه، وسينسى ذلك سريعاً..

– المهم أن تحملي من جديد يا ابنتي..

– هل أستطيع رؤية الجنين؟

– إنه صغير، وسيحزنك شكله ويحزنك موته.. حاولي نسيانه أرجوك..

– وهاشم؟ هل سيستطيع نسيانه؟

– ما زلتما صغيرين، وموت هذا الجنين ليس نهاية العالم بالنسبة إليكما..

– نعم.. معك حق..

* * *

استقبله كاسيوس خارج مكان الجراحة:

– أهلاً بك يا بني.. حالما تلقف معاونيّ جثة الجنين، عرفنا أن الوضع كان معقداً غير سليم..

– جثة الجنين؟ كنت أعلم بالتفاصيل فقد سمعتها بالصدفة، وكنت خائفاً على سلاف، لو استمر هذا الحمل وخرج بالشكل الذي كنت أتوقعه، أي جسم غوريلا وخمولها مع الشكل البشري وليس مع ذكائه، لكانت طامة كبرى..

– كان سيخرج على هذه النتيجة البشعة.. لو استمر الحمل إلى نهايته..

– سلاف الآن بخير؟

– نعم.. أفهمناها أن موت جنينها ليس نهاية العالم.. يمكنكما التخطيط لولد جديد..

– وآلامي؟ وكبدي؟ وآثار اختباراتهم علي؟

– ستكون تحت رقابة أخوتنا، في البلاد المجاورة، ولن نتأخر عن مساعدتك أنت وسلاف مهما طرأت تحديات جديدة على صحتيكما..

تنهد بأسى:

– كنت معذباً في بلدي، ضاقت بي السبل، وغدر بي بعض الأهل، وكنت أعتقد أن نجاحي في العبور إلى هنا هو أقصى

ما أتمناه.. وما أرحم الحياة في بلدي أمام الحياة التي خططوها لي ولزوجتي..

– المهم ستصلان إلى مكان آمن، وستمارسان حياتكما المشتركة.. وسأزوركما وعمتي كاملة، وسنطمئن عليكما باستمرار..

لم يكن العبور إلى الدولة المجاورة صعباً كما كان العبور إلى هذه البلاد التي يعتقدها الناس الفردوس الحقيقي..

كان عبوراً ساعد فيه الجميع، ووصل الزوجان إلى بيت ريفي منعزل تحف به الخضرة ليبدأا حياة جديدة بعيداً عن أجهزة التصنت وكاميرات المراقبة ومراكز بحوث الهندسة الوراثية وصناعة الكائنات المشوّهة..

الفهرس